

رياض القاضى
رواية
مَوْلَانَا السَّيِّد
حَلِيفَةُ الشَّيْطَانِ

في ذلك الشرق المتعب .. لا يخاف المرء من شيء .. بقدر ما يخاف من الإنسان

مجموعة النيل العربية

مَوْلَانَا السَّيِّدُ
رَوَايَةُ
حَلِيفَةُ الشَّيْطَانِ

رِيَّاضُ الْقَاضِي

مَوْلَانَا السَّيِّدُ
رَوَايَةُ
حَلِيفُ الشَّيْطَانِ

مجموعة النيل العربية

عنوان الرواية: **مولانا السيد - حليف الشيطان**

نأليف: رياض الناضي

رقم الإيداع: 25500

التقديم الدولي: 978-977-377-213-0

الطبعة: الأولى

سنة النشر: 2017

الناشر: **مجموعة النيل العربية**



العنوان: ص.ب: 4051 المحي السابع

مدينة نصر 11727 القاهرة - ج.م.ع

التليفون: 00202/26717135 - 26717134

الفاكس: 00202/ 26717135

البريد الإلكتروني: info@arabnilegroup.com

sales@arabnilegroup.com

arab_nile_group@hotmail.com

الموقع الإلكتروني: www.arabnilegroup.com

القاضي، رياض.

مولانا السيد - حليف الشيطان: رواية/ رياض الناضي
ط. [القاهرة: **مجموعة النيل العربية**، 2017.

192 ص: 20 سم.

تدملك 978-977-377-213-0

1- القصص العربية

813

أ- العنوان

تنويه 1 :

لقد تم بذل أقصى جهد ممكن لضمان احتواء هذه الرواية على مادة أدبية متميزة ترتقي بدلو القارئ العربي وتحقق له المتعة الفنية مع مراعاة عدم المساس بثقافتنا العربية الأصيلة وأعرافنا وتقاليدنا العريقة. ومع هذا، لا يتحمل الناشر: "مجموعة النيل العربية" أية مسؤولية قانونية فيما يخص محتوى هذه الرواية أو عدم وفائها باحتياجات القارئ كما أنه لا يتحمل أية مسؤولية أو خسائر أو مطالبات متعلقة بالنتائج المترتبة على قراءة أو استخدام هذه الرواية.

تنويه 2 :

إن مادة هذه الرواية والأفكار والرؤى المطروحة بها تعبر فقط عن رؤية مؤلفها وتوجيهه الفكري والأدبي، ولا تعبر بالضرورة عن رؤية الناشر وتوجيهه.

حقوق النشر :

حقوق الطبع والنشر بكافة صوره محفوظة للمؤلف، ولا يجوز نشر أي جزء من هذه الرواية أو اختزان مادها بطريقة الاسترجاع أو نقلها على أي نحو أو بآية طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو التسجيل أو خلاف ذلك إلا بعد الرجوع للمؤلف والحصول على موافقة كتابية منه. ومن يخالف ذلك يعرض نفسه للمساءلة القانونية مع حفظ كافة حقوقه المدنية والجنائية.

إهداء

إلى رجل المراحل الصعبة

الملك فيصل الأول

مقدمة لا بدّ منها

تشعّبت الأمور في العراق حتى ظنّ أهل الباطل بأنهم على حق... ساد رجال الدّين حتى طغوا فأرجعوا البلاد والعباد إلى عصر ما قبل النهضة... بينما دول الغرب تسابقت فيما مضى من القرون في التخلص من الكنيسة وفصل الدّين عن السياسة.. ونقل بلادهم إلى مستوى أعلى وانغرزوا في متاهات التعليم متجاهلين كل أنواع الطائفية، وحققوا نجاحات في بناء الصروح الحضارية التي هشّمت أحلام رجال الدين.. أما في العراق فقد حدث العكس.. بدلاً من أن ينهض البلد بالعلم، طوّحته الأيادي في براثن التفاهات والجهل... وأصبح بلدًا يحتضن مهرّجين على أنهم ساسة، وما هم بساسة بل وصمة عار على رجال السياسة.

في مقدمة هذه الرواية فضلت أن أستشهد بآيات قرآنية تؤكد تعامل البشر مع الشياطين وأنها حقيقة لا بد من الاعتراف بها.. وهناك رجال دين يلجؤون إلى مثل هذه الأمور ويستغلون ضعفاء العقل والقلب.. وما أكثرهم الآن في شرقنا الكسول.

وتعمدت أيضاً أن أستشهد في مقدمة الرواية ببعض من أقوال
الملك فيصل الأول عن طبيعة الشعب الذي حكمه.. وعن عقول لم
تتقبل أي نوع من الحكم سواء الفساة أو الطيبون.. فهان عليهم أن
يفتكوا وينكلوا برموزهم الوطنية التي تمثلت بالعائلة الحاكمة من ملوك
وأمرء، وبلا رحمة.

اليوم نرى حال دولة بأكملها لا يرتاح لها سوى جاهل ولا يسر بها
إلا الخائن.. في كل دقيقة تُولد بدعة، وفي كل لحظة تُسحق روح بريئة..
حتى فاقت الغطرسة كل شيء وانقلب في بلادنا كل شيء بالعكس..
فالشريف صار خائناً والخائن ائتمنوه على وطن ضائع.

سيد سامي

شخصية حقيقية ولكن بدون قرين.. شخصية تحكي أحداثها في البصرة «الهارثة».. حيثُ تهافت الناس عليه من كل حذب وصوب، مجّده وعظموه حتى باتت صورته أغلى من رغيف الخبز.. وصارت شهرته أعظم من شهرة الحاكم نفسه.

أثارت شخصيته إعجاب أهل المدينة حتى طُبعت صورته في المهنّات. وباتت مبيعات صورته تفوق صور الإمام «علي» - عليه السلام - التي غرقت بها الأسواق والأرصقة.. وبات الناس يقصدونه في نيل الرزق أو لكي يُغدق عليهم ببعض من الحرز ليقبّلهم من شرّ الإنس وفاجعات القدر.

وعندما أحضره رجال الأمن مكبّلاً بالغُطرة، أمام مدير أمن البصرة.. سأله الأخير:

- كيف قصّدتك الناس ومن الذي صنعك.. وكيف برزت فجأة في وقت قياسي قصير؟

فأجاب محني الرأس:

- سيدي، الناس هم من رفعوا شأني.. صنعت يوماً حرزاً باطنه قصاصة ورقية مكتوب عليها بعض ما أملاه عقلي من كلمات ارتجالية خطرت في بالي لحظتها، مُغلّفاً بقطعة قماش أخضر.. أعطيتها لامرأة اشتد عليها المرضُ فجأة.. الصدفة وحدها لعبت دوراً في تفعيل الحرز وعندما شُفيت من مرضها، انتشر صيتي في أرجاء المعمورة بفضلها.. حتى توافدَ عليَّ كبار الرجال زحفاً على الركب وأغدقوني بالمال والهدايا.

أحاول أن أشير في روايتي بأن المغزى الحقيقي هو حوار مع من يرفضون ما جاء به نص القرآن بأن المنجمين كذبوا ولو صدقوا.. وأن الدين هو رحمة لا نقمة وأن نشر المذهب بالسلاح.. كما نراه اليوم ليس وارداً في قانون الله.. بل علينا أن نتقبل الآخرين كما هم وليس كما يأمر «الولي الفقيه» تحت غطاء اللسان المعسول وكلمات رنانة يصدّقها السذج ويعظمها الفاسقون.. فالعقل هدية الله إلينا يخاطبنا به، فلمَ لا نخاطب الآخرين بالعقل بدل العصبيّة؟!.

وأخيراً أتمنى ألا تؤخذ روايتي على محمل طائفي.. وإنما أرجو مراجعة أنفسنا بجديّة وعزم، والإقبال على الأمور بعزم وروية، قبل أن نهلك أنفسنا بأنفسنا والله أعلم ما في الصدور.

المؤلف

﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ
الْآخِرِ ۚ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ۚ﴾

(سورة النساء - الآية: 38)

﴿إِنَّا زَيْنَبًا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِنْتَهُ الْكَوَاكِبِ ۖ ﴿٦﴾ وَحَفَظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ۖ ﴿٧﴾ لَا
يَسْمَعُونَ إِلَى آلَمٍ إِلَّا أَعْلَىٰ وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ۖ ﴿٨﴾ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ
﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۖ ﴿١٠﴾﴾

(سورة الصافات - الآية: 6 - 10)

وهذه الآيات تتبع المؤمنين: يخرجون الشياطين باسمي، ويتكلمون بالسنة
جديدة، يحملون حياتٍ، وإن شربوا شيئاً مُمْتِئاً لا يضرهم، ويضعون
أيديهم على المرضى فيبرؤون.

(إنجيل مرقس: 16 - 17 - 18)

«إن البلاد العراقية من جملة البلدان التي ينقصها أهم عنصر من عناصر الحياة الاجتماعية ذلك هو الوحدة الفكرية والمالية والدينية، فهي والحالة هذه مبعثرة القوى، منقسمة على بعضها، يحتاج ساستها أن يكونوا حكماء مدبرين، وفي عين الوقت أقوياء مادة ومعنى، غير مجلوبين لحسيات أو أغراض شخصية، أو طائفية، أو متطرفة، يداومون على سياسة العدل والموازنة، والقوة معاً، على جانب كبير من الاحترام لتقاليد الأهالي، لا ينقادون إلى تأثيرات رجعية، أو إلى أفكار متطرفة تستوجب رد الفعل».

«الحكومة أضعف من الشعب ولو كانت البلاد خالية من السلاح لكان الأمر لكنه يوجد في المملكة 15 ألف بندقية حكومية ولا يوجد لدى الحكومة نصف هذا العدد من البنادق في أي بلد من بلاد الله يمكن أن تكون حالة حكومة وشعب كهذه»
«لا يوجد في العراق شعب عراقي بعد بل توجد تكتلات بشرية خيالية خالية من أية فكرة وطنية متشعبة بتقاليد وأباطيل دينية لا تجمع بينهم جامعة سماعون السوء ميالون للفوضى مستعدون دائماً للانقضاض على أية حكومة كانت.

علينا أن لا ندع مجالاً للأحزاب المصطنعة والصحف والأشخاص ليقوموا بانتقادات غير معقولة وتضليل الشعب وعلينا أن نعطيهم مجالاً للنقد النزيه المعقول ضمن الأدب»

من مذكرات

الملك فيصل الأول

- 1 -

في ذلك الشرق المتعب..

لا يخاف المرءُ من شيء.. بقدر ما يخاف من الإنسان..

يراوده إحساس بأنّ الأرواح تحب النار.. حينها طغى لون الأدهم
كالعقيق الأسود وبات يكتسح جدران المغارة..

ظلال تتواثب وتتراقص على الجدار من ورائه.. تارة بأنياب كالخناجر
طويلة مقوسة، وساعة تتمثل في قط أسود تتوهج عيناها في ضوء الشموع.

قرية صفراء..

صحراء.. لم تصلها ذرة علم.

يهيم الناس على وجوههم.. باسطين آمالهم بين أيدي الدجلة.

بسطاء.. يغلب الجهل على تلك العقول الساذجة، يخلون من فقه لعلوم الحياة. ويلجؤون إلى البدع في نجواهم وتقربهم إلى الخالق.

الخرافات لديهم شيء مقدس وخط أحمر لا جدال فيه.. ومن يلتزم بها سيدخل الجنة.. كما تقول اعتقاداتهم، بل وحتى الملكان ناكرو نكير لا وجود لهما، وسيزور الميت أولياء معينون في قبره ويدخل الجنة بفضلهم.

البدع، الخرافات، الغلو.. ومن ثم الضحك عليهم من قبل من زوروا نسل الأنبياء ونسبوا أنفسهم إليهم لكي يسهل عليهم سرقة السذج باسم الدين.

في تلك القرية النائية، تتواجد السباع، سباع آدمية تلتهم السذج.

سباع تحالفت مع الشيطان، تعتاش على عقولهم البسيطة، تأخوا مع الشيطان في تحالف طويل الأمد.

عز الهواء فبدأ الفضاء خائناً كالحواري الضيقة.. يلتقط الأنفاس التقاطاً تتوزع عيناه بين الخلاء والشرود.. الفضاء خائق كأنه ليس خائناً. تسري في بدنه رجفة.

صاحب القدمين المفلطحين، المشققتين، كطمي جاف، يسرع في خطواته في الخلاء، وسط الظلام، قاصداً أعلى التل، في الوادي الرمي، يحمل بقجة، مثقلة بالزاد، اقترب بحذر من مدخل الغار، كان الخوف الساري في أوصاله يعتصره.. لا شمس لتبدد مخاوف الظلام.. يرتعش قليلاً.. ويكاد يصرخ من طيف يطالعه في الظلام.. هل هو مجرد تخيلات تتولد من شدة الخوف؟ أم فعلاً شبّح يطالعه وسينقض عليه في أية لحظة، يحاول أن يخفي ذلك الارتعاش، فوضع البقجة بسرعة أمام المدخل، ليطلق ساقيه للريح.

كأنه يخاف من أن يبتلعه حيوان كاسر، أو..؟ جن.

- 4 -

خلق الله عز وجل (سوميا) أبا الجن قبل أن يخلق - آدم - بحوالي ألفي عام.

وقال الله لـ سوميا: تمنّ.

فقال سوميا: أتمنى أن نرى، ولا نُرى، وأن نغيب في الثرى، وأن يصير
كهلنا شأبًا.

ولمّا خلق الله عز وجل لـ سوميا - أمنيته، وأسكنه الأرض له ما يشاء فيها.

وكان الجنّ أول من عبد الله على الأرض.

في دائرة من الشموع.. التي تحيط به.. جالسًا.. مغمض العينين يتمتم
بكلمات غير مفهومة.. مبهمّة، لا يفهمها إلا الجن.. لأنها لغتهم..
ابتدعوها، بعدما حرّفوا كلام الله.

رضي الرجل على نفسه أن يتحدى خالقه الآن، بداية المعصية بدأت..
سيتحدى قدره.. ويحقق لنفسه الجاه والمكانة التي يطمح إليها.. لا يهم
كيف.. المهم أن يكون سيّدًا بين قومه وانتهى.

لا صوت إلا صرير الرياح المُرعبة، يجلس كشبح مريض.. أنهكه التعب.. إلا أنه ما يزال يتحامل على نفسه لإنهاء ما جاء من أجله.. عيناه جاحظتان ليس خوفاً، بل تلهفاً للقاء الجن - القرين - حنجرته تضطرب، وخفقان قلبه بادٍ رغم الظلام الباهت، لا تكاد أضواء الشموع تكفي لإضاءة مساحة المغارة.

يتقطر من أنفه الطويل المعقوف العرق، عيناه عكرتان، كلما سمع فحيحاً صادرًا من جوف الحيطان، يفتح عينيه وكأنه ينتظر ظهور الشبح المرتقب بفارغ الصبر.

وبعد انتظار طويل..

أتاه ما كان ينتظر..

منخراه يتحركان من الاضطراب، العرق أغرق وجهه.

همس بصوت خافت:

- هل ستظهر؟

- لا جواب.

- هل سأمكث طويلاً؟

تردد صدى طويلاً في أرجاء المغارة الصغيرة.. هب هواء خفيف لفح وجهه المنهك.. أحس بشيء ما سيحدث..

أصبح بين اليقين والشك.

حدّثه صوتٌ من بين الفراغ:

- تَبّا.. عرق الخبث.. يمتلئ به جسدك كله.. إن صمدت أمام وجهي فستنجح في امتلاك قرين.

أغمض عينيه براحة.. والعرق يزداد غزارة.

- رائحتك عطنة أيها السيد.

ضحك الصوت بجلجلة.. فانتفض الرجل من مكانه.. فاتحاً عينيه مذهولاً، لم ينبس بكلمة..

يتنظر التالي.

اهتزت أرجاء المكان.. وكأن الجلبة تنبئ بظهور شيء مهول.
أسرعت أضواء الشموع الضعيفة بالانطفاء، بالتوالي، وكأنها تلقت
أمرًا بذلك.. حتى ساد الظلام والسكون للحظة قصيرة.

سأله الصوت:

- أعرفك جيدًا.. وأعرف أسرار النفس الخبيثة التي بداخلك.

- أنا عبدكم.

- وماذا تريد؟

- أنتم تعرفون ما أريد.

- نريد أن نسمع منك.

- التقرب منكم يا سادتي.

- نحن كائنات نستوطن عالم الخفاء.. الممتد من كل مكان من حولنا،

لسنا مرئيين بعيونكم العادية، لكن هناك من يمكنهم رؤيتنا.

- الدرويش أخبرني بكل شيء.

- وبماذا جازيناه؟

- دخلتم في بطن زوجته الحامل.. فانتفخت حتى انفجر بطنها.

- وماذا بعد؟

- دخلتم في رأس أطفاله فانفجرت الرؤوس الواحد تلو الآخر.. وألصقتم ظهر الدرويش في سقف البيت، وغرزتم رمحاً في بطنه ولم نستطع إزالته فاضطررنا إلى قطع الجسد نصفين حتى يزال الدرويش من السقف.

- ولماذا؟

سكت الرجل ولم ينبس بكلمة.

- حسناً سأجيبك رغم معرفتك الجواب.. أراد أن يتوب وقال لنا إنه عاد لرشده، فلقني جزاءه.

ساد صمت ثقيل لا يُسمع سوى حفيف ريح خفيفة ثم ما لبث أن عادت الشموع إلى الحياة وكأنها أضيئت بأمر.

حانت منه نظرة إلى الشموع، ثم ضحك الصوت وقال:

- المرحلة الأولى انتهت.. سنظهر لك قريباً، وإذا ارتعش جسدك من الخوف فستعيش بقية عمرك مجنوناً وعليك غضبنا ولعنة منّا لن تنتهي.. عليك أن تحافظ على قرينك يا سيّد سامي، والتزلّف إلينا في كلّ شيء.

- أمركم مطاع.

تخلل الهواء صدره فزادته نشوة واسترخاء.. رغم أن الحرّ يجثم على رثتيه ببطء وتصلّ رائحته الأنوف الناتجة من التعرق الغزير.

بين الساعة الحادية عشرة ليلاً والواحدة صباحاً، يظهرن فقط لأشخاص معينين.. عدا ليلة الجمعة، التي هي لحظات ابتهاجهم، يتسكع الجن في عالمنا حتى السبت، يجلّون في عالم مرئي متقمصين شكل الحيوانات أو حشرات، كأن يتقمص أحدهم حماراً، أو كلباً، صرصوراً أو فأراً. وهناك دولة عربية تتعامل مع الأسحار، ولا يلحقون الأذى ليلاً بحيوان أو حشرة، بسبب إيمانهم المطلق بالسحر والجن. سكنهم القاذورات والمراحيض والأماكن الموحشة والأدوية والقبور ومواضع القتلى والمزابل والديورة. وتدخل في الأصنام وتخطبهم. وينهون الناس من التغوط في القرع، وهو البياض المتخلل بين الزرع، لأنه مسكن الجن.. وأيضاً الجحر ولهذا يُكره البول فيه.

تسعة أشياء طلبها إبليس من الله لما نزل إلى الأرض مطروداً، مذموماً مدحوراً:

قال: يا رب، أنزلتني وجعلتني رجياً، فاجعل لي بيتاً.

قال الله - عزّ وجل -: الحَمَام.

قال: فاجعل لي مجلسًا.

قال - عزّ وجل -: الأسواق ومجامع الطرق.

قال: واجعل لي طعامًا.

قال - عزّ وجل -: ما لم يذكر اسم الله عليه.

قال: فاجعل لي شرابًا.

قال - عزّ وجل -: كلّ مسكّر.

قال: فاجعل لي مؤذنًا.

قال - عزّ وجل -: المزامير وآلات اللّهُو.

قال: فاجعل لي قرآنًا.

قال - عزّ وجل -: الشّعِر.

قال: فاجعل لي خطًّا.

قال - عزّ وجل -: الوشم.

قال: فاجعل لي حديثًا

قال - عزّ وجل -: الكذب.

قال: فاجعل لي مصائد.

قال - عزّ وجل -: النساء.

تسعة أشياء طلبها إبليس لتكون له عونًا على أداء مهمته التي طلب

الإنظار إليها.. إلى يوم البعث.

وفي لحظة كان ينتظرها طويلاً.. صبر أكثر من شهر بلا حَمَام ولا زاد يكفيه.. ما يجلبه له زوج ابنته من أكل قد لا يكفيه نصف نهار.. إذ كان السيد وبعد منتصف الليل يتسلل إلى مدخل الغار لكي يسحب صرّة الأكل بهدوء ويعود إلى حلقة الدائرة المتكونة من الشموع.. اشتاق للخارج وشم بعض الهواء النقي.. ضاقت نفسه ولكن جاء لشيءٍ ويجب أن يناله.

ارتجّ المكان قليلاً، ثم أعقبه ارتجاج أقوى، انطفأت الشموع بفعل الارتجاجات، بدأ التراب ينهال شيئاً فشيئاً من سقف المغارة ثم توقف الارتجاج.. ليسود السكون من جديد، كان يتبع تعليقات الكتاب الذي بين يديه، بأن يستمر في قراءة الطلاسم مهما حدث، حتى يظهر له مخلوق مخيف كالمارد، وعليه أن يستمر ويستمر بالقراءة وبلا توقف أو خوف، وسيحاول الزائر - القرين - أن يخيفه بتغيير ملامحه المرعبة، فإن خاف السيد فأمره مقضي بالجنون أو الموت، وإن صمد تأخى مع الجن وفاز فوزاً لا آخر له في الدنيا. أخيلة الأشباح ملأت المكان، بعد أن عادت شعلتها الخافتة إلى الإضاءة، تذرع المغارة بحركات انسيابية في الهواء.. تتراقص ظلالها مع أنوار الشموع براحة غير عادية.

ثم اجتمعت الظلال في ركن واحد.. وبدأت تتقاذف كسهم ناري أمامه،
ثم تحبَّت حال ارتطامها بالتراب، تبعثها الظلال الأخرى.. ما أن ترتطم
بأرض المغارة تختفي ككابوس أسود، وكأنها لم تكن.
«احذر الخوف، سيظهر قرينك قريبًا».

لا تنسَ الوصايا.. ما أن تبدي خوفك أمامه، سيمسخك إلى كائن مجنون.
ومع قراءة حروف الطلاسم، يتصاعد حفيف الأصوات المخيفة وتشتد حدتها. وكأنها تُعبّر
عن غضب عارم يموج في صدرها.. غاضبة من ثبات هذا الرجل بلا خوف ولا رهبة.
عليهم أن يخيفوه قبل أن يملك قرينًا.. فأسوأ شيء أن يُسخر جنِّي في
خدمة هذا الإنسي.

فجأة خيم الظلام والسكون.

ثم أعقب ذلك سهم ناري آخر، ارتطم على الأرض.. ليتحول إلى كتلة
لهب أنارت المكان، ثم ما لبث أن تكوّن شكل مخيف جلس أمامه، ساكنًا.
يغيّر شكله من قبيح إلى الأقيح.

فتح الرجل عينيه.. اتسعت عيناه جاحظة للحظة ثم تمالك نفسه من غبطة
النتيجة.. لقد صمد أمام الكائن وهذه آيات امتلاك القرين بلا ريب.

مخلوق يشبه الرجل الأرستقراطي، بملامح مرعبة، العيون عبارة عن
محاجر فارغة، قبح عجيب يطغى على الملامح، ينظر إلى الرجل نظرة
شيطانية مخيفة، الآن بدأت ملامح المخلوق تنجلي شيئًا فشيئًا وأصبح
واضحًا للرجل بعد أن كان يتلاشى قليلًا ويظهر قليلًا.

استقر على هيئته.

ضحكة مستهترة ثم سكوت خفيف..

- لقد نجحت أيها الإنسي.

- وإني لعلّ عهدي باقٍ.

- تخدمني وأخدمك.

- أنا حاضر.

- ابنتك.

اهتاجت روحه، تصاعدت أنفاسه قائلاً:

- ما لها؟

- لا تتردد.. أنت من اخترت عالمنا، لا نحن.. أنت من أعلن استعدادك

لعمل الرذيلة ولسنا نحن.

- ماذا تقصد؟

لقد رأيتني، وليس لك أن ترفض أي فعل نطلبه لأننا لن نرفض أي شيء

تريد.. تريد جاهاً وأناساً يُعظّمونك ويقدمونك.. لكل شيء مقابل.

أوماً برأسه يسأل التوضيح.. قائلاً:

- أريد أن أعرف ماذا تقصد؟

- ابنتك لا تحمل طفلاً من زوجها.. وبعلمها متلهف لطفل يحمل اسمه،

ستكون أنت من يزرع الطفل في رحم أمه.

جحظت عيناه، بل أرادت أن تخرجاً من محجرتها.

- ماذا؟

- متى يخرج من الغار؟

- اليوم مساءً.

- هل تعتقد سينجح.

- أستطيع الجزم بنعم.. فوالدك غني عن التعريف.

- عندما أعطاه الساحر المغربي الطلاسـم.. كان أبي تواقًا جدًّا لكي يجعل له قريئًا من العالم الآخر، ولكنني قلقة عليه من الغرور فأنت تعرفه.

- اتركه، فصيته أذيع بشكل كبير في القرية، والناس عظموه أكثر من الإمام علي نفسه... صوره تباع أكثر من صور الأولياء في كل مكان من البصرة.

- يا لهذه القرية الغبية.

- اتركهم فلولا هم لما عشنا... واحذري أن تتفوهي بهذا الكلام أمام والدك.

- فعلاً أغبياء.

قالت مستنكرة.

قالت معقبة بعينين مشاغبتين وأنفها المحبب، شفتاها كما يشتهي زوجها، ورثت عن أمها الجمال الفتّان، وطول القامة، لون بشرتها السمراء وشعرها البندقي، قروية تمتلك حُسنًا خرافيًا عيناها واسعتان كبجيرة عسل، أنفها به طول محبب، وشفتاها وحشيتان طالما دمرت بحسنها جيشًا من الرجال.. كلماتها سريعة تنطقها كأنها تتكافأ شهية، نضرة.

- سارية، سأذهب إلى الغار وأجلبه اليوم، وأنت حضري لنا العشاء.

- توخّ الحذر وأنت ذاهب إلى الخلاء يا حمدان، تلقاه الآن جائعًا.. سأبعث معك شيئًا بسيطاً ليأكله ويسد رمقه، حتى يصل البيت ونأكل سوية.

- لا تقلقي.

حمدان زوجها، دُب بشري، لكن طويل القامة، على خديه آثار فصد رفيعة، وله شعيرات قليلة أسفل ذقنه فشلت أن تكون لحية، ثرثار جيد، مساعد والد زوجته - سيد سامي - الذي آوى إلى الغار ليقترن بجنيّ ليحقق له مكانة بارزة بين مجتمعه الفقير.. وليبرز كرجل قوي، ذي سلطة لا تُقهر.

قبل ستة أشهر

جنوب العراق (الهائلة)

1927

الشمس تحرق الوجوه و الرمال وكل شيء، كان أهل القرية إذا مرضوا..
أو أصابتهم مصيبة أو حلّ عليهم غم أو هم، قصدوا بيت السيّد - سامي
- لكي يقضي حوائجهم، بأدعية وحرز مطوية على شكل مثلث مغلفة
بالقماش الأخضر.

يجلسون في هدوء في صالة الزوّار، في بيت من الطين كبير وواسع، يتكون
من طابقين، 4 غرف كبيرة في الأسفل، وسُلّم يفضي إلى سطح الدار
الشاسع، حيث توجد غرفتان واسعتان من الطين.. البيت مفروش
بأرقى أنواع السجاد الفارسي.

في صمت رهيب وبينما الفرد ينتظر دوره بين الزائرين، ليقصد مقابلة السيد، أقبلت
من الخارج امرأة بجسمها البض ودخلت عليه من غير أن تنتظر ولم يعارضها أحد،

زوجة أكبر تاجر في البصرة، ذي نفوذ قوي آنذاك، كان أهل البصرة يهابونه ويحسبون له ألف حساب، زوجته جاءت تبحث عن حل ربما - العقم - عند السيّد، طاوية طول المسافات ليريحها السيد من همّها.

ألوان الجالسين في الخارج مختلفة، بعضهم كلون النحاس متسخ وهؤلاء ينتظرون في الخارج تحرقهم حرارة الشمس يستظلون بسور الدار أملاً أن ينهي السيد مشاكلهم بحرّز أو دعاء، وهم من الطبقة الفقيرة، أمّا التجار أو أصحاب الحرف الأغنياء فكانوا يجلسون في الداخل.. تستطيع أن تميز الغني من ملابسه الفخمة.

المفروض الجميع جاؤوا سعيّاً لطلب حاجة أو تسهيل أمر قد تعسّر.. مستعينين بواسطة من السيد لكي يُسهّل تقربهم إلى الله وأوليائه... ولكن؟ في داخل الغرفة الأحداث تخبرنا عكس ذلك.

السيد يجلس على كرسي خشبي على كتفه شال أخضر يعتمر عمامة سوداء.. أصابعه مزدحمة بخواتم فضيّة، وعلى جانبيه أريكتان، على اليمين تجلس امرأة، حنطية اللون، ضخمة البنيان، جسدها لين كأنّها حشوها سمّنة، ذات ردفين خياليين، مؤخرتها رجراجة لعوب، فائقة الجمال.

كانت غرفة السيّد شبه مظلمة تُضفي الرهبة والخوف في روح كل من يزوره، دخان البخور كثيف يملأ المكان.

يتربع على الكرسي كملك.. ويمسح صدرها بعينين ماكرتين مرسوم
على شفثيه ابتسامة خبث، متحفزاً، متوترًا كلما رمقته بنظرة لاهثة
وحادة، أردفت:

- زوجي يا سيدنا لا يجيد الجنس، أصبعي الصغير يريحني أكثر منه، أريد
أطفالاً، وأنت تعلم بأن زواجنا دام عشر سنين ولكنه خصي.

كاد أن يهم بسؤالها كيف كانت تكتفي من الجنس طوال عشر سنين ولكنه
عدل عن سؤاله، اقترب منها كانت عيناها تلمعان بالرغبة، ثم قال وهو
يلهث كالكلب والعرق يلمع في جبينه:

- ولو وهبتك الطفل الذي تحلمين به.. ما هي مكافأتي؟

- حملني وسأهديك مال قارون.. فالمال عندي كالتراب.

قالت بإغراء كبير.

اقترب منها رويداً رويداً إلى أن أصبح جسده يلامس جسدها،
أمسك بيدها، ثم جعلها تتحسس رقبتة، حشرت أصابعها بين
سرواله وجسده، قالت:

- سيّد سامي أريد طفلاً من نسل الأنبياء، أولست سيّداً وجدّك رسول
الله، إذن لا تتأخر يا سيد.

- اطمئني وسيكون سيِّدًا مباركًا.

ضمَّتهُ إلى صدرها، فاخترقته، جسدها فاجر الأنوثة، مدَّت يدها تبحث عن رمح ذكورتها، قبضت عليه فشهقت، ثم قالت بشهوة عالية:

- أراهن بأنَّ ماءك سيحرقني، وإن أفرغته داخلي سيُخلق منه دود ويجعلني أشواق وأعود إليك يا مولانا.

أسقطت رداءها، اقشعر السيِّد من مرأى حلمتي صدرها.

حمراوين كبشرتين.

- لن أعتق سلاحك الكبير بعد الآن.

وفي لحظة كانت تنخر الرجل، والأخير يلهث، والناس تنتظر الفرج في الخارج ليدخلوا وتُستجاب رغباتهم.. جالين الهدايا من الشاة والذهب والمال.. يطمعون في التقرب للخالق والاستجابة لأدعيتهم العالقة بين السماء والأرض.

أمَّا في الداخل فكانا متشابكيْن.

مقام السيّد المعّم في مناطق الجنوب في العراق سواء النائية أو حتى في
الأماكن المتحضّرة مهيب، وله سلطة واسعة لا يعلو عليه أي صوت إن
أفتى أو صرّح.. فسلطته خطٌّ أحمر ممنوع التجاوز والنقاش عليه.

فابتليت المناطق التي يسيطرون عليها بشتى أنواع غسل الأدمغة
واحتوائها بالكامل.. عن طريق حشو الرؤوس بالمعتقدات والبدع.

ومع مرور الزمن باتت هذه التسمية لعنة طغت على بقية المذاهب لأنها
تأسست لغرض معين، بانت أبعادها بعد قرون.

فخرجت جماعات نسبوا إلى أنفسهم صفة أحفاد - آل البيت -.

واعتمروا عمام سوداء على رؤوسهم واستغلوا الناس في أموالهم
وأعراضهم، وضحكوا على الملايين، لأنهم احتوا العقول بطرق ذكية
تحت غطاء الدين، وحذروا بل ومنعوا الناس من خوض النقاشات بهذه
الأمور، والتي تُعرف - بالتقية - حيث من يعصي هذه التعليمات يُعتبر
خارجاً عن الملة.

والخارج عن ملتهم مصيرُهُ النار.

كما سيُحرم العبد من رحمة الحسين وعلي لأنهما سيكونان كالرب يوم
القيامة يُزيجان ويدخلان العبد الجنة أو النار.

فارتعشت الأنفس واقتشعرت الأبدان، وصدّقوا، واتبعوا الأفاويل
والأحاديث المحرّفة وابتدعوا البدع وغالوا كثيراً في دينهم وشعائهم.
النقاش ممنوع، اتّبِع ولا تُجادل في الأمر.

وكان لظهور المعمرين أثر كبير في نشر الفتن والدجل في جنوب العراق،
لدرجة أنهم استغلّوا حب الحسين وزجّوهم في ويلات الحروب تحت
مُسمّيات طائفية لا تمت إلى ثورة الحسين بأي صلة لا من قريب ولا من بعيد.

واستشرى المرض كما يستشري السرطان في البدن ويأكل الصّحة كما
تأكل النار الخطب.

«لا عجب لأنَّ الشيطان نفسه يُغَيِّرُ شَكْلَهُ إلى شِبْهِ مَلَائِكَةِ نُورٍ».

«قبل أسابيع من الاعتكاف في المغارة»

حتى عواصف الخريف أصابها الرعب.

السماء أظلمت نهائياً واكتست سحابةً أحمر كجهم، أمطرت السماء رملاً. تصرخ الريح حاملة في صخبها ثياباً وأواني من النحاس والفخار، وفروع الأشجار.

من نافذته راقب - سيد سامي - شجرة الليمون تميل حتى توشك أن تنكسر في مساءٍ صاحب تعزف الرياح فيه أشد معزوفاتها صخباً.

وما أن ينزل المطر الحائق تصبح تلك القرية الملعونة بالشياطين مستنقعةً يفوح برائحته الفاكهة المتعفنة. وعندما يكفّ المطر تبدو القرية مغسولة رطبة.

كان مولياً ظهره لحمدان وسارية، اللذين كانا جالسين حول صينية الشاي، الموضوعة على الأرض، على ضوء السراج.

قال وهو يتأمل المنظر المخيف متجاهلاً صوت الرياح:

- الجن والشیاطین تلجأ فی مثل هذا الجو المرعب إلى البیوت، وتبحث عن بیوت لا یذكر فیها اسم الله.. یتوددون لأهل السحر کثیراً.

نظرت ابنته إلیه محدثةً بقلق أباها:

- ماذا تقصد؟- فحانت منها نظرة إلى زوجها الذی كان هو الآخر ینصت باهتمام إلى والد زوجته بدهشة..

- صوري تباع فی كل مكان، لا یحلفون بالخالق بل یحلفون بی، فی التجارة وفی بیوتهم، البصرة ومناطقها المجاورة تبیع صوري أكثر من صورة الإمام «علی» نفسه.

ضحك باقتضاب ساخر.

- أبی علیك أن تحتاط من بعض الأشخاص فهناك من سیدعي العلم وسینعت كل ما تفعله بالدجل.

قالت بشيء من التردد.

انزعج أبوها بشدة من كلامها، ثم أردف:

- تفاعلی بالخير، لم هذا التشاؤم یا امرأة، من أين سیولد هذا الفارس؟ أنا السید سامی احتطت لكل شيء.

سكت قليلاً لینشر الصمت الرهیب قبل أن یفجر فكرته:

- خلوة واحدة ستغیر كل شيء.

خرج حمدان من صمته:

- هل ستستعين بالله أم بآل البيت يا عمي؟

ضحك السيد ساخرًا ثم نظر إليه بجزع:

- هل الله سيُكلّمني يا أحمق؟ أم آل البيت سوف ينفذونني وهم راقدون في قبورهم؟.. أراك تُصدّق بأن قطع القماش الخضراء التي نوزعها لهم مقابل المال كحزر ممكن أن تحمينا من ثورة محتملة من بعض الطبقات الاجتماعية.

- ولكن الأمور ليست بهذه السهولة، الثورة لن تقوم هنا وستفشل بالتأكيد، الناس قد أكل الدهر وشرب بعقولهم، هؤلاء العراة والحفاة.. أية كلمات سوف تخترق جدار أدمغتهم المتحجرة.. ما إن أخبرتهم رؤياك بأن الإمام عليًا زارك في منامك خرّوا لك ساجدين.. - قال حمدان - معقبًا.

- سأخبركم قصة حدثت قبل أعوام، عندما زار ساحر مغربي وابنته العراق، حلّوا ضيفين على الدرويش الذي لقي حتفه، وكان أعزب وقتذاك، وكان حينها يسكن في النجف.. أخبره المغربي بأن هناك كنزًا مدفونًا في صحراء النجف وطلب من الدرويش المساعدة.. بعد بحثٍ لم يدم طويلًا بفضل المخطوط وجدوا المكان، وفي إحدى الليالي وبالقرب من مكان الكنز جلب المغربي ماعزًا أسود فذبّحه وأساح دمه في دلو وتعرّى، ثم طلب من الدرويش أن يمسح بدم الماعز جسده

بالكامل وألا يترك مكاناً إلا ويمسحه، حتى في كل ثقب من جسده
وبالتحديد فتحة الدبر.. وطلب من الدرويش بأن يترك الخجل جانباً
لأن الخجل في هذه الأمور سيكلف حياة المغربي.

كانت سارية وزوجها ينصتان باهتمام وبدون أن يقاطعا أو يسألاه عن
شيء.. واصل السيد:

- تقدّم إلى مكان الكنز بخطوات ثابتة وعزم، بعد أن طلاه الدرويش
بالدم، مسح كل منطقة من جسده، كان المغربي أثناء المسح يتمتم
بطلاسم معينة لكي يتفاعل مع السحر والدم، قبل أن يتقدّم بشجاعة
كبيرة، وقبل أن يظهر تين مرعب يحوم حول الكنز غاضباً غير مُرحّب
بالزائر.. يفرد جناحيه الأسودين العظيمين.. ويكنس السماء نافثاً
نيرانه. وما إن رصدَ جسارة المغربي وهو يتقدّم بكل ثقة إلى الأمام..
حتى نفث عليه النار فأحرق الجسد بالكامل حتى غدا فحماً.

ذهل الاثنان وتملكني الرهبة حتى النخاع، وضعت المرأة يدها على
فمها من هول الفاجعة ولم تتمالك نفسها من الصدمة.. تبكي والدها
بشدة.. «ثم سأله حمدان مقاطعاً»:

- لماذا تفحّم الرجل؟ أَوَلَمْ يكتسِ جسده بالدم؟

- لأن الدرويش استحي من لمس دبر الساحر، فقد خجل الغبي، وظنّ المغربي
نفسه بأمان، وأنّ الدم قد غطى كل أجزاء جسمه، لكي يأمن نار التنين..
ولكن ضاع الرجل، فعادت ابنته إلى المغرب تجر أذيال الخيبة والحزن.

- ولكن يا أبي هل في تيتك أن تُخرج الكنز.

- لا، بل أكبر من هذا الشيء، فهذا الكنز لا يُغنيني بشيء، ولن أقبل إلا بالشيء الأكبر.. سوف أتحالف مع الجن.

قالها بصوت خشن ارتعد له بدن الاثنين، كادت أن تصرخ ولكن حمدان أسرع بوضع يده على فمها حتى كاد أن يكتم على أنفاسها.. فزاح يده ببطء وحذرهما من تكتم الأمر، ثم سأل بفضول:

- ماذا تقصد يا عمي؟

- حصلت على طلسم من ساحر هندي زار البصرة قبل فترة وسأجربه.

- ولكن يا عمي هل هذا الطلسم حقيقي؟

- كتاب الطلسم الأسود، زودني منه ما يكفي لكي أحقق ما أريد.

- أبي هل تعتقد بأن أمور الجن واقعية، أنا لا أو من بها.

- عزيزي هل سمعت بالجن العاشق؟

قالت ضاحكة بسخرية:

- أرجوك لا تضحكني أكثر.

لم يهتم بسخريتها، زمّ على شفّتيه فازداد لمعان عينيّه اللتين تقطّرتا شراً، بات خيفاً وهو يهم بالشرح، حتى انعكس نور السراج في عينيّه، نجح في إدخال الرعب في قلب الاثنين:

- الجن العاشق.. هو نوع من أنواع الجن الذين يكونون تحت حُكم الملك - ملك العشيرة - ويكون نوعاً مسالماً لكنه مؤذٍ في بعض الحالات، وحين يُعجب بالبشر، في البداية يتملك قلب الإنسي ثم عقله ثم روحه.

انكمشت الفتاة على نفسها واقتربت من زوجها ليضمها في حضنه، حانت من السيد ابتسامة خبيثة عندما رأى ردة فعليهما، وقال:

- يوهم الفتاة أو الرجل على علاقة حب والحبيبة مجهولة.. وأغلب ضحايا الجن العاشق هم البنات وقليل من الأولاد.

- يا رب رحماك.. همست بخوف..

- قد يُعجب بصوت الولد أو بشكله، ثم يبدأ بممارسة طقوسه معه، أما البنت فتكون حالة خاصّة بالنسبة له، يظهر لها في المرأة، يراها ولا تراه، فيعجب بجسدها وجمالها، غير أنه يعشق الفتيات ذوات الشعر الطويل ويبدأ يطاردها في الأحلام ثم النوم وأخيراً يظهر لها.

تقدّم ناحيتها ببطء، فانكمشت المرأة أكثر من الخوف، تحاول تمالك نفسها، ثم باغتها بطلبه:

- صبي لي الشاي عزيزتي.

وبرعشة يديها صبت الشاي في القدح وقدمته له، كان واقفاً يتابعهما بصمت ورضا.. ثم أردف:

- على الرغم من اسمه الجذاب - العاشق - إلا أن الاسم لا يعكس حقيقة شكله قطّ.. يشبه أقوام الهنود الحمر القدماء، ذو جسد طويل وأسود مخطط البدن بالأبيض ويرتدي الريش الأحمر على رأسه كالتاج.. ذو وجه طويل وفكّ مدبّب، وتبدو عيناه مظلمة ينفث السواد منها.

لم يكن وقع حديث المساء المخيف سهلاً على سارية.. فبعد أن انتهوا من الكلام، وانفضّ الجميع ليناموا، ولكي يطمئن قلبها كانت تطوف بالحجرات مصطحبة زوجها حمدان الذي تبعها على مضض، مادة يدها بالفانوس فتلقي في أركانها نظرات متفحصة خائفة ثم تغلق الأبواب بإحكام، واحداً بعد آخر، مبتدئةً من الطابق الأرضي مثنية بالطابق الأعلى، ثم تنتهي إلى حجرتها فتغلق الباب وتندس مع زوجها في الفراش، منكمشة في أحضانه.

تكررت هذه الحالة كثيراً، ففي وقت الغروب عندما كانت لوحدها أحياناً، كانت أشد خوفاً، بدأت تستوعب عالم الجن، أنها لا تعيش وحدها في البيت الكبير، وأن الشياطين لا يمكن أن تظل بعيداً عن هذه الحجرات القديمة الواسعة الخالية، ولعلها آوت إليها قبل أن تولد هي في البيت.

فبدأت تدب إلى أذنيها همساتهم، وكم من مرة استيقظت على لفحات من أنفاسهم، حتى زوجها الراقد بجانبها لم يغثها بل غطّ في نوم عميق. كانت تهرع إلى الشباك لتمد بصرها الزائع إلى الشارع الذي يلفّه الظلام، لا أصوات سوى فحيح الرياح المخيفة، ترهف السمع لالتقاط ضحكة أو سعلة تسترد بها أنفاسها.

«بعد الخلوة»

كان ينتظر محتبياً خلف صخرة كبيرة في الخلاء، وقت الغروب، لينزل الليل بهدوئه المعهود. سيخرج السيد قريباً من خلوته، كان بدنه يقشعر وكأن أشباح الصحراء تنظر إليه بنهم. والنهار يغوص إلى قلب الأرض، ولن يخرج مولانا حتى يستقر الظلام في كل ركن، ويتسلق السماء.

رأى رغم الظلام الشديد شبحاً يخرج من فم الغار، بردائه الأبيض، لولا قربه من الغار وضوء القمر لبات رؤية السيد أمراً صعباً.

بدا واضحاً في العتمة كلما نزل من السفح واقترب من حمدان، أمسك بقبضة الطعام وهرع ليقبّل يده ويهنئه على سلامته.. تقزز من رائحته، كانت مقرزة تقتل الكلب في مكانه. كانت رائحته قبيحة عطنة، كفاكهة عفنة، العرق السام يلتصق بجلده.

- جلبتُ بعض الطعام لكي تسند به طولك.

- غبي وهل هذا المكان يفتح الشهية للأكل.

لم ينبس حمدان بكلمة وارتأى لزوم الصمت، أسلم له من تلقى صفعات الكلام من السيد البذيء.

كان الهواء رطباً مُشَبَّعاً بالملح، ينضح ببرودة خفيفة، والسماء مثقلة بسحب الصيف، توشك أن تسقط على الخلاء.

- قلقنا عليك جداً مولانا، فحمدًا لله على السلامة.

- حذرتك ألا تذكر اسم ربك أمامي مرة أخرى.

أطرق حمدان خاشعاً، وقبض الرعب روحه، لم ينبس بشيء. رائحة السيد كالخراء، كيف ستكون الحياة بعد هذا اليوم معه، هل سيحافظ على عادته أم أن التحالف مع الجن سيغير الكثير من مجريات الحياة.

- ستقول حمدًا على سلامتك مولاي السيد، فالجن من سيتولى أمورنا من اليوم وصاعدًا.. أنا من أتباعهم منذ اليوم.

- هل تقصد أنك رأيتهم؟

- اسمع - مال برأسه إلى حمدان حتى كاد أن يلتصق بوجهه، يحذره بلهجة غريبة.. مخيفة للغاية.. وقد تغير صوته فجأة إلى بحّة مرعبة، وكأنه صوت شبح يتكلم عن لسان السيد - لن تسأل أكثر مما سألت اليوم،

إن كنت تريد فعلاً أن ترافقني وتصل بسلام إلى البيت، قبل أن أفجرك
بُسْخْطِي عليك وأفصل رأسك عن جسدك.

أفزَعَتْهُ جدًّا نبرة الصوت المبحوحة، لم يكن قط صوت السيد.. شخص
آخر تلبسه ويتكلم بالنيابة عنه، التزم الصمت رغم الخوف الذي يكاد أن
يمزقه والرجفة بدأت تلازم بدنه. ضاع صوته من حنجرتة خوفًا وهلعًا،
ولا يدري كيف ما زالت ساقاه تحملاه، ربما قوى خفية من الجن تحمل
ساقيه ليواصل المشي مع عمّه.. من يدري؟

- ماذا لديك في الصرة؟

تتم بخوف:

- سارية بعثت بعض الأكل.

رفع الصرة بيده التي ما زالت ترتجف حتى توازى مع مستوى عين السيد،
رمى السيد نظرة سريعة إلى الصرة، ثم لاحظ منه نظرة استنكار اقشعر لها
حمدان.. الذي انتفض بدوره من الطريقة الغريبة التي يتصرف بها السيد،
أشاح بيده قائلاً بصوت أجش:

- سنأكل في البيت.

- سارية جهزت الحَمَامَ أيضًا.. لا يفوتها شيء أبدًا.

لم يتمالك السيد نفسه.. فزجرَ بصوتٍ قطع هدوء الخلاء:

- أي حَمَام أيها الغبي، لا حَمَام لي بعد اليوم، إلا كُل أربعين يومًا، عليك أن تعرف ذلك.

لمس حمدان لأول مرة في السيد تغييرًا مفاجئًا.. فلم يجد فيه اللين كالسابق، ولم يعهد هذه التصرفات من قبل.. الأريحية بالكلام والتودد إلى عمه كانا يضيفان إلى نفسه الطمأنينة، ولكن ما يراه الآن خالٍ من كل ود.

كانت كلمات السيد تنخره بشدّة.. وطغى بعض الخوف عليه، خصوصًا بعد أن تكلم بصوت غير صوته.. وكأن شخصًا آخر يتكلم.. يخاف في قرارة نفسه أن يفكر بشيء، لكي لا يُفضح تفكيره للجن.. ويوشى أفكاره لعمه ويفتضح.. الأحسن أن يمتنع عن التفكير لكي لا يقع في المتاعب مع عمه وقرينه.

رغم الظلام الدامس، إلا أنّ المارّة كانوا كخفافس نشطة، يسرون حفاة، كانت تراقبهم من شباك غرفتها، متحلية بالأساور والحجل، حلوة كخبر مفرح، تمدبصرها إلى الأفق الأسود، تُنزل قدميها عن الأريكة المحاذية للشباك، تنهض.. تذرّع الحجرة الواسعة بقلق، تتأمل السقف الخشبي، تتمتم بأشياء، وربما الدعاء بعودة والدها وزوجها بخير وسلامة، ثم تتجه بقلق إلى الشباك ترقب الطريق، لا ترى من تنتظر قدومهما، تمدبصرها إلى الأفق الأسود مرة أخرى، لا تكاد تميّز شيئاً، تأخرا كثيراً.

رائحة الملح تصلها في مكانها محملة بالرؤى. أبوها اليوم سيكون سيد القرية لو نجح في خلوته، لن يزعجهم أي شخص ممن سيّدعي الحرب ضد الجهل أو حتى وإن كانوا رجال الأمن. تحاول مدبصرها شيئاً لعلها تراهما، لكنها ما زالت لا ترى شيئاً.

- 17 -

ما زالوا يمشيان حتى وصلا أطراف القرية.. دخلا في أول زقاق بصمت، لم يشأ السيد أن يراه أحد وهو يسير على الطريق العام.. لا قبل له ولا شهية باستقبال أحد، ففضّل الولوج في الأزقة المظلمة.. للوصول إلى البيت بسلام وهدوء.

التعب باد على الاثنين، جو خناق، لا هواء يتحرك، يقبض النفوس، ثم سأل السيد حمدان بهدوء:

- الصمت يعمّ القرية، أتراهم ناموا من شدة الحر؟

- يتمنون رجوعك من إيران، كما أوصيتني أن أقول، ينتظرون رجوعك لتشفي مرضاهم وتنفحهم بأحجية الرزق والبركة.
- أغبياء. «همس السيد بحنق».

ثم سأل مرة أخرى باستنكار: وماذا أيضاً؟

- وتقذف في قلوب النساء الطمأنينة.

أجاب حمدان بخبث رغم الخوف الذي تسلّق مفاصله.
سارا طويلاً حتى اقتربا من البيت ثم بادر حمدان قائلاً:

- ها قد وصلنا أخيراً أكاد أرى شبح سارية المنير في الشبّاك تنتظرنا.
أشار إلى ناحية الشبّاك هامساً يكاد يلتصق بوجه السيد من الغبطة.

- سيدنا يجب أن ترتاح، فأمامك واجبات كثيرة.. ما أن يسمعو بك قد
وصلت حتى تكتظ الدار بالزيارات.. لتهديهم من فيض بركة زيارتك
لإيران لضريح الإمام الرضا.

حدّجه السيد بنظرة احتجاج أن اخرس.. ولم يُعلّق على تفاهات حمدان،
كان يهذر كل الطريق بلا توقف.. وقد حان الوقت لكي يسكت.

لمحت سارية والدها من بعيد حتى نزلت مسرعة لاستقباله مشتاقة، فتحت
باب الدار، تبدو مشرقة متهللة تتمايل وهي تستقبل والدها بكلمات الاشتياق
أضافت لو الدها الارتياح العالي لرؤيتها بهذه الزينة. ارتمت في حضنه سعيدة:
- والدي اشتقت إليك.

تجاهلت رائحته الكريهة.. وحاولت أن تكتم أنفاسها دون أن تلمّح شيئاً
من انقباضها من رائحة أبيها، احتراماً له.

قال بعينين تلمعان من نصرٍ لطالما كان يحلم به:

- وهل لي في الدنيا غيرك، ابتني، انتهى زمن الخوف. والدك عاد قوياً..
أقوى من قبل.

ثم مجدداً فتح ذراعيه واسعتين وضمّها فضمته.. وقبلها فقبلته.. وكأن في
رجوعه كان يحمل العيد.

يوم كغيره من الأيام، لا الشمس تنذر بما سيقع، ولا الناس يعرفون ما تُخبئ الأقدار لهم، إلا أنهم يتكتلون الواحد تلو الآخر، بعضهم حضر لتقرأ سارية لهم طالعهم، وأغلبهم حضر والرؤية السيد وأخذ البركات منه، يطلبون بأن ينفحهم السيد بحرز أمين يحفظهم من شرور الأيام والحسد والعين، والرزق والحمل.. وما إلى ذلك من الأمور التي تشغل بالهم.

رياح السموم تهب حارة كلهب مسموم، فالوقت هو الصيف.

كان كل من يدخل إلى صالة السيد التي يجلس بها لاستقبال زبائنه يشكو غيابه.. ويظهر في كلامه مدى اشتياقه لرؤية مولاه السيد.

افتقده أغلب الناس.

كان السيد يوضح لكل زائر مهم يدخل عليه الآتي:

- الإمام الرضا.. عند زيارتي له، طافت روحه معي حول المرقد وكأني أراه «هنا فتح الرجل فاه معلناً اهتمامه لاستماع قصة السيد» كان يتسم لي، يعلن عن رضاه عليّ وعلى كل من يتبرع بالخمس - الزكاة - في سبيل الخير،

وأنا نائم ذات ليلة زارني في منامي، كانت رؤيا تبشر بالخير، بشرني أن ما أفعله في خدمتكم هو عين الصواب في زمن قلّ فيه الصدق، وأهداني عباءة خضراء وقال لي: يا سليل أحفاد النبي بلّغ شيعتي بأنهم بخير والجنة مشتاقة لهم.. مشتاقة لكل من لطم من أجل «الحسين» وأحيا ذكراه وطبّر لحمه في سبيل أن يتألم لآلام آل البيت ومصابهم المروّع.

هنا قام الرجل خاشعاً وصلى على النبي وآل بيته ثم جثا على ركبتيه وزحف إلى أن وصل إلى قدم السيد وانهال بالتقبيل على الساقين.. رماه السيد بنظرة وابتسامة مأكرة.. ربت على ظهر الجاثم على ساقيه.. ثم مسح على شعره برفق قائلاً:

- لقد وفّيت وكفيت ونلت رضاي ورضا آل البيت.

أخرج الرجل كيساً من المال ودسه بخشوع وهدوء في يد السيد ثم زحف إلى الورا حتى استقام حائياً ظهره وغاضاً بصره ليخرج متمتماً:

- بارك الله بمولانا السيّد، بارك الله بمولانا السيّد.

حتى توارى خلف الباب.

لمعت عينا السيد وزفر بسعادة ورضا وهو يفرك بكيس النقود.. مستمتعاً بنغماته الساحرة التي تصدرها القطع المعدنية.

كان وجهه يفور بالنفاق، ينحت كذبًا بتقوى مصطنعة على ملامحه أمام كل داخل إليه، كل من يدخل إليه كان يحمل عطايا يغدق بها مولا هم العتيد.. أو يجلبون له بقرة أو عددًا من الأغنام حتى أضحى السيد أغنى الأغنياء في البصرة وفي وقت قصير.

وهكذا يجد الأهالي أنفسهم يطيعون السيد طاعة عمياء، رجل يعتمر عمامة سوداء.. ذاع صيته فجأة من دون سابق إنذار، لا يحق لهم الخوض في نقاش حول الدين، ممنوع ثم ممنوع، النقاش سيُخرجك من رحمة «الحسين» يوم القيامة لأنه هو من سيُدخل شيعته الجنة حتى ولو كانوا في النار، هذه محاضرات تفشت وباتت تُدرّس في مجالسهم إلى وقت طويل.

تفشت في البصرة ظاهرة - سيد سامي - حتى بات مقدّساً، ومن يستهزئ بالسيد سامي يُحذّروه من مغبة وخطورة فعلته وأنه سوف يُصاب بعجز في أجزاء جسده، وسيحقيق كل من يتجرأ بسوء على السيد سامي لعنة إلهية. وكانت صور السيد تُباع من قبل الباعة أكثر من صور «الإمام علي» نفسه.. وسعر الصورة وصل إلى مرتبة أعلى من مراتب بقية صور الأئمة المتداولة في أسواقهم.

صور كبيرة أو صغيرة تُنسخ منها المئات وتُباع، يعتقد حاملها أنها بركة كبيرة وستبعده الصورة عن كل سوء.

وجه مستطيل يعتمر عمامة سوداء بشارب ولحية تغمّر نصف وجهه تتخللها شعيرات بيضاء.

من يتبعها يقبلها باحترام بالغ ويضعها على رأسه إجلالاً لصاحب الكرامات ثم يضعها في جيبه، أحدهم قال فرحاً:

- أقسم بالسيد سامي، ابني كان مريضاً جداً.. ما إن مسحت صورة السيد على وجهه وجسده حتى اختفت الحمى بعد سويعات قليلة وشفي تماماً.

فأجابه الآخر:

- بركات السيد لا غبار عليه، جده سلام الله عليه الرسول الأعظم، لا حجاب بين السيد وبين ربّه، لقد سمعت بأن الإمام الحسين أهدى سيد سامي بركات لا تنتهي أبداً عندما زاره في المنام.

ثم أكمل الثالث:

- يجب أن نحافظ عليه من الحاقدين، ولا سيما عيون الحكومة الكافرة، فالحكومة تخاف من رجال الدين.

وابتعد أحدهم فرحاً وهو يشق بسعادة التيار الزاخر من الناس الذين يسدون الطريق بزحمتهم.

كان المساء يسيل على جسدها. عارية كبهجة متوحشة، بيضاء كحليب البلابل. شعرها البندقي مبلل يلصق بعنقها ويتشبث بوجنتيها. عنقها طويل كغزال. ونهداها ثمرتا تبلدي.

فردت شعرها على كتفيها والتقطت ثوبها ثم انزلت بأمان على جسدها ليغطي جسدها البض.. تفوح منها رائحة الجلال وماء الصندل.

كان والدها من وراء باب الحمام يقطر بالدنس يراقب من ثقب الباب الخشبي الصغير. يلهث ولسانه يندلق من فمه مداعباً بشهوة عظيمة باطن سرواله على رؤيته مفاتن سارية وصوت خفي يتلو على أذنيه:

- هذه الجميلة البضة التي حرمت نفسك منها بقانون إلهي جائر.. هذه ستكون لك.. لك وحدك.. قانوننا لا حرام فيه فكل شيء فيه مُباح.

لوّث قطرات المني رداءه، تراخت قبضته شيئاً فشيئاً، وعندما همّت سارية بالخروج.. ارتبك وفرّ قبل خروجها، تراجع فاقد الصواب، تعثر، ليصدر صوتاً خافتاً، انتبهت سارية فظنت أنه الجنى العاشق.

للمت نفسها وأخذت حاجاتها لتخرج فارةً مُسرعة من الحمام حاملة معها الفانوس، فتحت الباب وخرجت تركض لتخبر والدها بما راودها من مخاوف. كان جالساً بهدوء يتصنع القراءة في كتاب كبير متهرئ الصفحات يقلبه بهدوء..

جاءه صوتها تستغيث بخوف جميل:

- أبي.

رفع بصره بهدوء ووقار وهو متربع كالملوك.. رآها بيضاء يُغلفها النور الفضي:

- نعم سارية.

قالت لاهثة:

- كنتُ في الحمام وأحسست بأن أحداً يُراقبني خلسة وأنا عارية.

تبعثر وجوده.. واضطرب ثم قال بارتباك:

- من؟

- لا أعرف ربّما الجن العاشق.

هنا أطلق ضحكة عالية وبأريحية كبيرة قائلاً:

- وكيف لا يعشقك «قام من مجلسه واقترب منها بشهوة العاشق ووقف خلفها يكاد أن يلتحم بظهرها» لك عيان مشاغبان، وأنت بالنسبة

للرجال والجن شهية، نضرة، يكسوك جلال^٨ وفتنة، ضحككتك لمعة
مسروقة من القمر.

ابتسمت فبان حسنهما كالقمر بشعرها الذي يسيل كالنهار المشرق، قالت
وهي ساهمة في كلام أبيها:

- ليت حمدان يخبرني بذلك.. ليته مثلك.. ولكن عيبه لا يعرف الكلام الجميل.
- ابن الزانية، لا يحس بقيمة ما يملك من حسناء - داعب بأصابعه شعرها
وقرب أنفه من خصلاتها وشمّها بشذوذ - أنت الماس بل أغلى من ذلك.
استدارت برفق نحو أبيها الذي اعتدل بسرعة لكي لا يثير شكّها، قبلته ببراءة
الأطفال على جبينه ثم تركته وصعدت عبر السلم إلى غرفتها، التفت بانتعاش
وحسرة إلى مؤخرتها وهي تصعد السلام.. والأرداف تتمايل صعودًا ونزولاً..
يا لها من بضّة..

أفاق من همس الصوت الخفي الذي أتاها مرة أخرى.. فانتفض:

- انظر، وأشبع النظر من مؤخرتها، تخيل كيف ستضاجعها، إنها لك، إنها
لك، انتظر منّا ساعة البدء، ولكن الطفل سيكون لنا.. نأخذه، وليس
لك أن ترفض.

- وزوجها؟

- دبرنا أمر التخلص منه، تحتاج إلى خادم مطيع، لا منافس على مُلكك،
لا يصلح زوج ابنتك أن يرافقتك بعد الآن.

هنا جحظت عيناه، فواصل الصوت الهامس بتأن:

- سنجعله يتشبث بثدي أمل لا يدر حليًا.

- لم أفهم.

- يريد أن يتآخى مثلك مع الشيطان ولكن سنضله وستكون نهايته
على يديك.

انتفض برعب وسأل:

- أقتله؟

- لا، ولكن الخلاص منه سيكون على مراحل وعلى يد الشيطان المولود
الذي سينجبه من البيضة.

- ينجب جنينًا؟

- سنخبرك بكل شيء بعد حين.. لا تتعجل الأحداث.. جعلناك ملكًا في
قريتك، أعطيناك ملكًا يحلم به الكثيرون، وستفوق مُلك سليمان.. أنت
اليوم بالنسبة لهم كالنبي.

تلاشى الصوت، وانسحب تاركًا صدى النبي يتردد في أذنيه مُصدرًا
فحيح هواء خفيفًا، تركه الصوت.. في ذهول لذيذ.

الحياة يصنعها المعتوهون، اللصوص، الوصوليون، الزناة والقوادون، تلك العجينة من القذرين، وفاسدي الشرف يقيمون أضلاع المثلث ليلياً، حفلة للأغنياء في قصر «رفعت بيك» بمناسبة عيد ميلاد زوجه - حميدة - الجميلة التي كانت تَوَاقَّة لطفل لا يهْم من يكون أباه. رغبته فقط في طفل يرث والده.. زوجها الأكبر منها بثلاثين عاماً.

- رفعت بيك - يعاني من أزمة قلبية حادة، الدكتور أكد بأنَّ الأزمة الثانية لن تبقيه على قيد الحياة. عليه الابتعاد عن المشاكل لكي لا يُصاب بأزمة من شأنها أن يفقد حياته.. لم تكن تهتم بحياته بقدر اهتمامها للمال بعد أن ترثه، كانت تحذره ظاهرياً من الإفراط بالشرب، حين أكتبت على استظهار نوع من الحب الظاهري أمام المجتمع المحيط بهم.

كان جو الحفلة معفراً بالفساد، وهم يحتفلون بعيد زواجهما، «رفعت بيك» سَكِرَ تماماً، يتسامر مع ضيوفه في حديقة الفيلا الواسعة، غادرت حميدة الحفلة بعد أن سبقها شاب بإشارة منه إلى داخل الفيلا، وتسلسل بخفة عبر السلام إلى الطابق العلوي بعد أن تأكد من خلو الصالة من الخدم،

لحقته هي بعد أن تأكدت أن الجميع قد غاصوا في غمرة السكر، رفعت بيك ثمل يعمل الكأس ويشربه يترنح بين المدعويين.. حتى أخذ مجلسه بين نساء ورجال سكارى كانوا يضحكون مرحين، فرحين بجوهم الخلاب الذي تغشى قلوبهم بشتى عواطف الحماس والحب.

دخلت وراءه إلى إحدى الغرف المظلمة، كان مختبئاً وراء الباب.. وما إن أوصدته حتى باغتها فجأة.. بسحبها من ذراعها مُطمئناً إياها بأن لا أحد سيصل إليهما، لثم جبينها.. ذلك الشاب الأسمر الأنيق، عاتبته بإغراء شرس - بعد أن ضمّها إلى حضنه.. تعاتبه - على المرأة التي اصطفاها عليها زوجته «صفية» - وكأن النساء أصبحن لديه كثمار الأرض كل واحدة منهن لها تربتها التي تتشبث بها، ولها مذاقها المثير لشهوة القضم، تغيب عنا في فصول، تقلب يحدث في الأرض والروح والرغبة.

يلثم رقبتها ويتجاهل عتابها، يعصر نهديةا، يكاد يرفع ثوبها تمنعه، تحت ستر ظلام الغرفة انزوي في زاوية الغرفة.

- لا أستطيع التخلص منك، وكأنك تأتين في المواسم كالفاكهة، أنت أول طعم لذيق تسلل إلى جوفي.

- وصفية؟

سألته مُحتجّة.

هنا عصرها من ثديها بشهوة ونار حتى لامس صدرها صدره فاشتعلت
بينهما نار شهوانية بانت حرارتها عندما تحوّل الكلام إلى همس حارق
أفحمت الاثنين:

- ألا تنسين قليلاً.

كانت تتكلم بكل رضا وارتياح وهو يشدها هائماً بأعصاب انهارت
من لوعة أنوثتها التي لا ترحم، فرّت منها آهة، ظل يحتضنها وشم
رقبتها ولشم شفيتها حتى أفلت الزمام من الاثنين وغرقا في نشوة
طويلة، ترتعد فرائصها من قوة دفع الشاب الأسمر، غرس أصابعه بين
إبطيها وراح يشدها أكثر وهي مولية وجهها للحائط. التفتت إليه بهدوء
وتوقف هو ليثبت عينيه في عينها.

بقبلة طويلة على شفيتها قالت بخدر عميق:

- أحبك رغم أني أكبرك بسنوات.

أجابها:

- وهل تطيب علاقتنا بدون فارق العمر.

- جودت، أعلم كم أشتاق إليك حتى وهو بجانبني على السرير.. مُرْتَمِياً
كالخنزير الميت.. صدّقني لا أكاد أطيق هذا الخنزير، متى ينتهي وننتهي منه.

أدنت وجهها منه فمدّ شفّتيه ولثم خدها، تناولت ذقنه بأنامل يمينها
وقبلته تكررًا، وكأنّهما جوعى التقبيل، ثم قال محذرًا وكأنه فطن إلى أمر
أهم من التقبيل:

- حسبنا هذا التأخير فقد ينتبه أحد لاختفائنا.

مسحت على شعره مبتسمة تطمئنه:

- لن تجد أحدًا صاحبًا الآن.. الجميع يترنّح وقد تجد زوجاتهم في أحضان
غير أزواجهن.

انسابا بخفة من الممر المظلم ثم جعل حميدة تنزل أولاً من الدرج إلى
السلاملك ومن ثم إلى حديقة القصر وبعدها تبعها العشيق بخفة الغزال
واندس بين الحضور.

سرعان ما فترت روح السيد سامي ولاح في عينيه الضيق ولزم الصمت ملياً، كان جالساً في الصالة الكبيرة متربّعاً على الأريكة الخشبية، وأنس حمدان من صمته تسليماً فقال بظفر:

- ولم العصبية يا سيدنا، وماذا يحدث لو أتبع أسلوب السحر ويكون لي جني قرين، كما لك.

- اسمع حمدان، لكي تؤاخي جنيّاً، فهذا ليس بالأمر الهين، أمامك امتحانات صعبة لتثبت جدارتك على الشجاعة الكافية لتتمكن من الصمود أمام أشكالهم المريعة وإلا فستُجن حتماً وفي هذا الموضوع لا يوجد هزل، وستُصبّ عليك اللعنة إلى أن يقودوك إلى القبر، فلا رحمة لديهم.

- وإذا صمدت أمامهم؟

- لا أعتقد «مسحة السيد بنظرة احتقار واستهانة، فضاقت ذرعاً منه وودّ لو يقتله في الحال».

تمعن السيد في وجه حمدان مجدداً وكانت فكرة جهنمية خطرت على ذهنه.. أنامله غاصت في لحيته وبدت عليه علامات الغضب، لا بد أن قرينه كان على حق عندما حذّره من حمدان.. وهذه بداية حماقة قد ظهرت من حمدان.

قال السيد بامتعاظ ومكر:

- السيد كندياس، أقوى ملوك الجان، يسانده ناصور وهو جنى قوى، أي خطأ في تعويذته الخاصة يصدر من قبلنا ولو بحرف سيسبب ضرراً جسيماً، وأحياناً يصل إلى الموت، أناس أخطؤوا فقتلهم الجن، اسمع يا حمدان... مال بجذعه نحو حمدان، ففعل حمدان نفس الشيء، اشرب عنقه وبدأ يصغي بدقة وحذر إلى السيد:

- عالمنا غير سهل... لي صديق مغربي كان ساحراً كبيراً... بدأ مُنْجِماً قبل أن يخطر له أن يدخل في عالم الجن، جلس يوماً وهو عاكف في الخلاء يستعد لإحضار جنى، وفي أثناء خلطه البخور، أخطأ في التعويذة حتى أصابه الموت خنقاً، لأن على الساحر في بعض الأحيان أن يكرر قراءة التعاويذ 200 مرة وإن أخطأ فلن يأتيه شيء، حتى ولو رقص الساحر على السُّلَم وعلى أطراف أصابعه.. والخلوة أصعب أحياناً.. وبعد أن تجتاز اختبارهم تجده أمامك على شكل طفل بريء مسالم جداً يبتسم ومؤدب، ولكن لما تستهين به محتمل جداً أن تفقد النطق ويصيبك الشلل أو أي لعنة من شأنها أن تفتك بك.

- إذن، عمّاه دعني أجرب، فلا ضير من ذلك.

حدجه السيد بنظرة حادة، امتلاً خنقاً وتهيئاً.. اهتزت لها فرائص حمدان هلعاً من نظرة عمّه الغاضبة له، والذي رماه بنظرة مسح بها أجزاء جسمه المكتنز في جلبابه الفضفاض، كقربة هائلة، لم ينبس بشيء، وفكر في صمت،

اتسعت أفكار حمدان وبدأ يُفكر بطريقة لم ترتح لها أسرارير السيّد، بل اعتبرها الأخير بأن حمدان قد أعلن الحرب، ولا نهاية لها إلا بالموت.

وللسيّد طموح كبير وواسع ما زال يرنو لتحقيقه، يتوسع ولن يقف عند حد معين، لم يفكر قط أن ما يقوم به ربما يفتح عليه نيراناً ربّما تكون صديقة أو نيران أعداء يتربصون له بأن يهفو أقل زلّة ليلسلخوه بلا رحمة.

لكنه أيضًا يملك قريباً من الجن، استحوذ عن طريق السحر على قلوب أهل قريته، بل حتى استحوذ على قلوب من كبار رجال العشائر الذين يتوافدون إليه زحفاً على الركب.. ما أن يصلوا باب داره حتى يبركوا ويبدأ الزحف أو الجبو إلى داخل داره، بعد أن يُفتح لهم الباب المقدس.

لن يضحى بكل هذا من أجل تحقيق حلم حمدان المريض، سيفكر بطريقة لكبح جماح طموحه المجنون.. هذا الثور الجاثم على صدره منذ سنوات طويلة يجب أن يُردع.. ولكن اللوم ليس على حمدان.. بل الحق عليه لأنه زوّجه ابنته الوحيدة، ظاناً بأن حمدان سيكون ساعده الأيمن مدى الحياة، لا أن يُفكر في إزاحة السيّد، لكي يحقق طموحه القذر على حساب الغير.

غرق في تفكيره المعهود حتى أيقظه صوت الثور الجالس أمامه:

- سيّد هل سمعت ما قلته؟

التفت إليه السيّد بصمت بالغ فقط اكتفى أن يدير رأسه نحو حمدان محتفظاً بثبات جسده وأعصابه، كالصنم جالس يُطالع حمدان.. الآن..

الهمس بدأ يطنّ في أذنيه، القرين يحضر في أي وقت يشاء ولا يمنعه أحد، أمره الهمس أن يتلو حمدان ما تلتقطه أذناه من تعاليم سيمليها القرين عليه الآن بشأنه..

اعتدل السيد محافظاً على هدوئه، فمال بجذعه نحو حمدان، رفع حاجبه باهتمام وهمّ بقول ما يلزم قوله على ثور ابتته مقلصاً عضلات وجهه، وقد بان أكثر جدية الآن:

- هل سمعت بقرين البيضة؟

أشار بيده لحمدان - أن اسكت - عندما همّ حمدان أن يُجيبه، ولكن السيد لم يسمح له كالعادة ثم واصل:

- أن يُؤكّد لك قرين من المنى.

التزم حمدان الصمت، ليس باختياره بل جبراً.

- منيّ الرجل يُحقن في بيضة، بدون كسر لئلا تفسد العملية.

حقن البيضة بمنى الرجل سحر مغربي قديم، مذكور في كتاب السحر الأسود الذي يُصيب بالجنون كل من يحاول أن يقرأه بدون دراية ووعي.

يحتاج ممارس هذا النوع من السحر أن يتمتع بجرأة وشجاعة عاليتين، ليتحدى الطبيعة، بحقنه للبيضة من دون أن يسبب كسرها لكي لا يفسد السحر،

ثم دفن البيضة لأيام محددة كما يشير في الكتاب، وبدون تأخير يأتي الفاعل في اليوم الأخير ويجد قريناً صغيراً لا يتعدى طوله طول ساعد اليد، بانتظاره.

إن تأخر في حضوره ينقلب عليه السحر ويكون الجني القزم عدوًّا أبدياً له. وإن فكر الفاعل يوماً في التخلص من الجني الصغير.. عليه أن يملص رأس قرينه بدون أن ينظر إليه.. لأن الجني سيتمثل له بأشكال مروعة.. ليتمكن من الخلاص من بين قبضة الفاعل والفرار منه، ويذكر الكتاب أن الجني ما يلبث أن يعود بعد فترة قصيرة ليتنقم من صاحبه ولن يحول بينه وبين قتل الفاعل ذلك إلا الموت.

الرجل مجرد أن يفكر بأن ينتقل عن وضعه العادي إلى ساحر، فيعتبر إنساناً مجرداً من كل القيم الإنسانية، ولا يؤمن له جانب حيث يُعتبر حليف إبليس في الأرض، وهو دسيسة على وبين خلق الله، فالسحرة لا يؤمنون على توصيل عقيدة أو إيقاظ ضمير نائم، لأنهم وبصنع أيديهم جردوا من أي عمل رحمانى، وقاموا بتبديل النورانية بالظلمانية، والرحمانية بالشيطان. وللساحر تعاون مباشر مع شياطين الجن والطواغيت منهم، وجميعهم داخل دائرة شيطانية واحدة، ورأس هذه الدوائر - إبليس -.

وعقائد العمل عديدة لدى الساحر، منها التبرؤ من عبادة أي إله إلا إبليس، ليتبرأ الساحر من الله وملائكته وكتبه ورسله، ويُعلن ولاءه لإبليس اللعين.

وكما أن لإبليس عرشاً يحمله كبار الشياطين وهم ثمانية، وله مئة اسم تدخل في العزائم التي يقرؤها الساحر، وله أسرار توزيع الخدمة وهي الطلاسم، وعددها مئة، وهذه الطلاسم هي همزة الوصل لكل من يدخل هذه الدوائر الشيطانية.

يذبحون القرابين، ولا يُسمّى عليها، ويكون على نية شيطانية ويدهنون أجسامهم بدم هذه القرابين، والنجاسة.. وهي التلذذ بمعصية الله عندهم عبادة. كما تدينس القرآن عندهم عبادة.

استطاع سيد سامي أن يحرز من خلال عمله التقدم في مجال حياته، وكان كما أراد ساحر درجة أولى.. وأن يطمح في قرارة نفسه إلى الخلود، مستغلاً الدين غطاءً له، أوهم العديد بأن آل البيت هم من يلبون له طلبه حباً به لتقواه. استحوذ على عقول كثيرة، ولا يحلف الفرد إلا باسمه، ولم تكن المدارس في تلك المناطق النائية تقي غرضها بالقضاء على الجهل المسيطر بين أهل القرية.. بسبب برجة عقولهم منذ الصغر على معارف وأقاويل هشة للغاية، وأي فكر جديد يُعتبر لديهم كُفراً وفسقاً ويعتبر من أعداء آل البيت.

ولم يكتفِ ممن يدعون التدين بهذا القدر من التقدم في تحريف العقول، بل ابتدعوا خرافة الأرواح التي تطوف حول المراقد المقدسة وتلتقي بالأئمة والتحدث إليهم مباشرة والبث بترهات غزت القلوب والعقول.

ثورة الجهل على العقل قامت قيامتها منذ سنين ولم يردعها رادع.

وأما هؤلاء السحرة من الدرجة الثانية، الذين يرتبطون بدائرة شيطانية وبطريقة غير مباشرة. سحرة العمل بدون العقيدة، أي الذين يُعَظِّمون الأسماء الشيطانية والطلاسم التي يتعرفون عليها من خلال الكتب والمكائد ويطلق عليهم المشعوذون.

وسحرة الدرجة الثالثة هم المنجّمون - العرّافون - أو الفلكيون ممن ينبؤون بالغيب، ومن يضرب بالرمل ويقرأ الفنجان.

فيقوم المنجّم بتوقع الغيب عن طريق الكواكب السيّارة والنجوم وتأثيرها على الإنسان، وهو من يُبيّن الأبراج الفلكية من: اعرف برجك.. وإلى آخره.

والدرجة الرابعة والأخيرة من السحرة:

صاحب ألعاب السيم، وصاحب من يُسمى بالقوة الخارقة، في السيرك وأكلي الجمر ومخيطي الوجوه، وقاهري العفاريت.

كانت الغادتان تجلسان في مجلس القهوة بدار «حميدة» مع «صفية» زوجة - جودت بيك - الأخيرة كانت لماعة البشرة من شدة بياضها، نجلاء العينين، زرقاوين تأسر القلوب بنظرتها الرعدية، فتردع أقوى الفحول، لو ابتسمت عن أسنان ناصعة البياض، وصوت كرنين النحاس.

وشت الجلسة عن عدم رضاها على زوجها - جودت بيك - ولعبت حميدة دور المرأة التي أخذت على عاتقها حل المشكلة، بين كل رشفة فنجان وأخرى تفتح فاهها وكأنها تسمع المشكلة لأول مرة، وتمسح على بطنها المنتفخ تارة بفخر، ولكن حركاتها المستفزّة لم تثر في نفس صديقها أي ردّة فعل سلبية أو إيجابية.

صفية تعاني أيضاً من مشاكل عدم الحمل، متزوجة من سنين ولم تظفر من بعلمها بوليد يغنيها عن كل شيء.

تشكو بحرقة من غياب زوجها لأيام طويلة عنها، ومن التغير الذي طرأ عليه فجأة، ثم أطرقت في حزن بالغ، ولازمت الإطراق كأنها أخذت سنة من النوم،

حتى رفعت رأسها في بطء فلاح الحزن في عينيها أعمق مما قدر، ثم قالت بصوت ضعيف وكأنها تخاطب نفسها:

- تخيلي أتوسل إليه أن نزور الطبيب فيتجاهلني ويقول كله بأمر الله حتى توقف عن معاشرتي، وكأنه يعاشر غيري.

فوقع كلامها كطلقة نارية على نفس حميدة، فإذا بكل شيء حولها يتغير ويتبدل سريعاً، ويكفهر الجو لولا حميدة بادرت بالإسراع وغيرت مجرى الحديث:
- لا عليك سأفكر بحل الحمل، أعدك بذلك.

- كيف؟

- الكيف اتركه عليّ، دعيني أضع حملي بسلام وبعدها لن أتوانى عن مساعدتك.

صفية ستعمل المستحيل لكي تظفر بطفل، وحميدة يلمع الانتقام بين عينيها لتنتقم من المرأة التي خطفت عشيقها بلمح البصر.

كانت صفية كلما تكلمت أمام حميدة.. تستحضر في ذاكرتها أوقاتها الجميلة مع زوجها.. تتكلم بحنان عنه ومعاشرته اللذيذة لها، ودّت الأخرى لو تلطمها، ويا ليت قذيفة تصيبها على رأسها بغتة فتنتثرها إرباً إرباً، وتثار بها أفضع الثأر.

كان يتوهج في عينيها بريق خفيف تطاير من تحت جبهة عابسة مكفهرة
تجمعت في أحاديدها نذر الشر والوعيد، كانت تودّ وهي تغرّ فاهها
لتطلق قذيفتها.

ولكن لسانها لم يتحرك، تُفضّل الاستماع، التصق لسانها بسقف حلقها،
كأنها جذبه إليها مخها الذي لم يعمه العناء عن البلاء، كانت تفرغ غضبها
في فئجان القهوة بالعصر واللحن في داخل نفسها تارة، تتصنع ارتشاف
القهوة وهي تستمع بأذان صاغية ما يفعله جودت بصفية وكيف كان
يعبر عن ودّه وهو يداعبها قبل الجماع، تتظاهر بالابتسامة والحدق يكاد
يجرقها.. ودّت لو تلتقي به لتخنقه على السرير.. الكذاب والأفاق كيف
يقول ويحلف لها بأنه لا يلمس زوجته ولا يشعر بها.. وها هي زوجته
تتحسر على ما مضى من علاقات حميمة.. هنا تعيد الفنجان إلى الطاولة
وتصب قهوة أخرى وتستمع بغیظ النساء إلى صفية.

اللحظات الرهيبة كيف ستمر مع صفية؟ كسرعة الزلزال الخاطف الذي
يشعر فيه الإنسان بأنفاس الموت تتردد على وجهها لحظات ثم يعود كل
شيء لمستقره.

كانت تلقي عليها نظرة مظلمة بالوقت وكأن الأريكة ترجع من تحت قدميها
على أثر نبضات قلبها، اقتحمت صفية صلب الموضوع وهي تُحدث حميدة

ما لا تطيق سماعه، تحدثها عن المعاشرة الجسدية، الحميمة، كيف لم يستغن لحظة ساعتهما من دون أن يضاجعها بحمية الزوج الهائج كالبحر عندما يكتسح الرمال، ويضرب الساحل بدون موعد. وكيف أخبرها أنه مولع بها حد الجنون، ويتوق إلى مضاجعتها من الخلف فرفضت هي بدلال، وجعلته يهيم في حلمه دون أن ينال مطلبه.

- مجرمة.

رددت حميدة بحق في نفسها.

رنت إليها صفية ببسمة لطيفة وقالت برقة وإغراء:

- لم يطأني أحد من الخلف.. إنه أمر قاس.

ثم فجأة تراجع رأسها في قلق كقطعة أقبل نحوها كلب:

- وكيف سيطؤني وسلاحه كنصف ذراعي، سوف أُجن من ذلك.

شقت بضحكها روح حميدة التي ارتعدت منها، ودّت لو انقضت على

رقبتها وتكسرها.. ولكن اللقاء الأعمق الذي جمع بينهما لا ينتهي..

فواصلت صفية الكلام.

استدعى مدير أمن البصرة - جودت بيك - إلى مكتبه الفخم وأبلغه بالانتشار غير الطبيعي لظاهرة السيد سامي التي تفشت في ناحية الهارثة النائبة - شمال شرق محافظة البصرة - واتسعت شيئاً فشيئاً لتكون ظاهرة محلية بين محافظات الجنوب العراقية.

حيث يسود بين الناس إشاعات قوية بأنه ولي من أولياء الله وسامع أوامره وطاعته هو من طاعة الله، ولربما سيدعي بعد فترة بأنه «المهدي المنتظر» ويصدقّه الكثيرون وسيؤيدونه.. لأنها مناطق بدائية وانطلاء الحيل الدينية عليهم أمر سهل للغاية تحت غطاء ديني بحت. وكان المدير يتطلع على صور السيد ثم ما لبث أن بسطها أمامه قبل أن يدخل عليه - جودت بيك - وما إن حضر الأخير حتى زاد مزاج المدير تعكراً أكثر.. وسمح للضابط الشاب بالجلوس.. ملم الصور بامتعاض وانزعاج بانابوضوح على ملامح وجهه.. وأعطاهما إلى جودت ليسمع منه تفسيراً حول الانحلال الأمني الواضح في منطقته كضابط أمن يدير عمل معاوية أمن الهارثة.

- أكثر من سنة وهذا الغراب العجوز ذو العمامة السوداء يتسلطن على الناس، وحضرتك نائم، أين رجالك وأين تقاريرهم يا أفندي.

قال الكلمة الأخيرة بسخرية بالغة وواضحة ولكن بهدوء الرجل الحكيم، ازدرد الضابط ريقه بصعوبة وخرج قائلاً بحسرة:

- سيدي أنا أتابعه منذ مدة ولكن لم يصدر منه شيء يدل على أنه يقوم بنشاطٍ معادٍ للمملكة أو كلمات تسيء إلى جلالة الملك المعظم.

- يا سيد جودت.. أيها الضابط.. النشاطات المعادية ليست فقط أن تقوم على شكل سياسي مباشر، الدين أكبر نافذة للمساس بالسياسة وأمن البلد، هؤلاء الدجلة هم أذيال دول تريد لنا الخراب وتعارض قيام مملكتنا، وبمرور الزمن سيكونون أمراء تنظيم وسيكبرون مع الوقت لتطيح بنا.. الدجلة المتدينون يؤثرون على عقول تلك المناطق النائية، لا تنسَ أن إيران تتغلغل في جنوب العراق منذ أمد طويل، الشاه علماني ولكنه يعلم كيف يدخل تنظيماته ويتلاعب بعقول الرجال، هم يزرعون عيوناً ونحن نقلعها بمرور الأعوام.. لم أستدعك لألقي عليك محاضرة يا سيّد، ساعة من الزمن أريده هنا، أريد التكلّم معه، هذا الوقح لا أعرف كيف يفكر وإن تركناه فهذا ليس لصالحنا.. نفذ الأمر الآن.

وما كان من جودت إلا أن وثب منتصب القامة مشدود الذراعين إلى الأسفل قائلاً بصوت ملبّ للأمر:

- تمام سيدي، سيكون عندك اليوم.

غادر المكتب قلقاً.. ولكنه كيف سيبادر بجلب شخصية أثّرت على منطقة بكاملها؟ لا أحد يجروء على ذلك لا من قريب ولا من بعيد.. كيف يرفع عينه ويلصقها بعين السيد الذي يغدقه بالخيرات، علاوة فالسيد تغلغل وأصبح كإله على الأرض ويُقدّس بين الناس أكثر من أي شخصية دينية أخرى.

فكيف سيقبض عليه.. ويحفر بيديه نهايته كضابط، لأن أهل القرية لن يرحموه على جريمته، وسيلقي بنفسه في أتون المعركة بدلاً من أن يعيش بسلام بينهم ويتمتع من خيراتهم.

ثم غمغم وهو يفتح باب السيارة بنبرات نمت عن اليأس:

- والهدايا التي تأتيني كل يوم؟ وشيوخ المنطقة الذين عاهدتهم على حماية مصالحهم في المنطقة؟ مجنون حضرتك أيها المدير.. ولكن لك ما تريد. تنهد بحيرة مسموعة وقلق فإن لم يتصرف بحكمة في هذا المأزق العظيم، فستكون حياته في تهلكة إلى ما شاء الله.

لن يستطيع أن يعتقل السيد بنفسه، فهو لا يريد أن يفتح على نفسه نيراناً صديقة من العشائر الجنوبية المؤيدة للسيد، والأفضل إرسال أحد الضباط لإتمام المهمة ذلك أسلم حل .. وإن تأزمت الأمور فسينكر علمه بالأحداث ويكون في مأمن من شرّ الأهالي والشخصيات العشائرية ورجال الدين.

وفعلاً كلّف جودت ضابطاً شجاعاً لهذه المهمة .. شاب في الخامسة والعشرين قوي البنية يمتلك ثقة عالية في النفس، فاغتبط بدوره لإناطته بهذه المهمة من قبل الأمر - جودت ييك - الذي طالما انتظرها بفارغ الصبر، وهو إلقاء القبض على دجال استولى على نفوس الناس بشعوذاته بمكر ودهاء.

فسيك النظام هنا منتشر .. ولكن من سيطفر في النهاية؟

فلا قانون يردع هذا السيد، لأن لا أحد من رجال الدولة فكّر بأن يردعه، على العكس هناك من تهاون معه وباع نفسه لعطايا السيد المغرية. اشتروا الدناءة وباعوا القانون.

الناس باتت تؤمن به أكثر .. تحتفظ بصوره كرجل مقدس .. ممنوع لمسه دون وضوء.

تحرك غضبه الباطني وسرى في شرايين دمه.. يكاد أن ينفجر من شدة العنف على السيد المُقدّس.. إنه يؤمن بقتل رجال الدين كما فعل أتاتورك عند إقامته الدولة التركية العلمانية الخالصة.

نعم هم من يقصدهم الله في القرآن - المفسدون في الأرض -.

وكانت في هذه اللحظة قد انطلقت ثلاث سيارات، مفرزة مكونة من عشرة أشخاص وكانوا متحفّزين لأي طارئ.

رجال الأمن من بينهم الضابط الشاب كانوا يرتدون ملابس مدنية، حيث كانت سياراتهم تمر بسرعة خاطفة من بين بيوت الطين.. ليولد الرعب في نفوس الأطفال والنساء ويهرعون للاختباء في بيوتهم، بينما تخلف السيارات المسرعة وراءها عاصفة رملية هائلة.. قبل أن يصلوا إلى بيت السيد وتهدأ العاصفة الرملية التي خلفتها عجلات السيارات.

توقفت السيارات بشكل عشوائي على مقربة من بيته، كانت الدار مزدهمة بالزائرين ينتظرون في الخارج، بسبب أن عدد الأشخاص داخل الدار لا يسمح بدخول آخرين، الزائرون كانوا ينتظرون في طابور طويل ليحصلوا على الإذن ويدخلوا على مولا هم العتيد.

شخصيات حاضرة في ديوان السيد، من وجهاء عشائر، ومن طبقات مختلفة من الشعب، ويلاحظ ذلك من خلال عربات الخيول الفاخرة التي تنتظر أمام بيت السيد. كل من جاء يُقابله إمّا ليث شكواه إليه ويتوسط لدى السيد لنيل رضا الله والتبرك عنده، أو يزوره حبًّا لشخصه كرجل

دين مبارك به ولينفح السيد بالعطايا والهدايا، أو سعيًا للحصول على حرز حسب الطلب ونيل رضا آل البيت في نفس الوقت.

عندما رأى الجمهور حضور مفرزة الأمن تنبؤوا شرًا من مقدمهم، فمثل هذه الزيارات عادة لا تنتهي على خير أبدًا، بل يضمرون الشر كعادتهم على رجال الدين، ولا سيما أن أهل القرية يعلمون بأن السيد سامي بات مصدر قلق للدولة.

وقد حان الوقت للجهر بالعداء لهذا السيد. ولكن هيهات ثم هيهات، تكاتفوا ليكونوا جدارًا يمنعون رجال الأمن من دخول الدار.

فاختلطت تياراتهم، الصغير والكبير والفقر والغني معًا لحماية مولا هم. ساد الصمت المخيف الذي ينذر بشر لا حدّ له سوى الموت أو الانسحاب. وقف الضابط أمامهم بحنق، وأخذ يحذّجهم بنظرات غاضبة على هذا العصيان المفاجئ. صاح بهم بلا جدوى، سمع صدى صوته يتلاشى مع الجوّ، فأدرك أنهم مجتمعون على عقيدة يصعب تفريقها حتى ولو بالسلاح. حاول أن يجرب معهم أسلوب الحوار المتمدّن ففشل، ضحكوا عليه وسخروا من ساجته.. قالوا له - روح العب غير ها-.

أراد أن يقنعهم بأن السيد سيحلّ ضيفًا كريمًا ويكون بأمان ولا داعي للقلق.. وأن ما يفعلونه ضد شرعية المملكة وعصيان مدني يُعاقب عليه القانون الملكي، ولكنه لم يجد غير زيادة في غضبهم من خلال الأعين الصامتة التي تقدح شرًا ونقماً على رجال السلطة.

حتى قطع الصمت صوت صرير وانفراج الباب الخشبي ليظهر السيد من خلفه بهدوء.

رماه الضابط بنظرة تدل على الحقد.. نظرة متقهقرة بعض الشيء، لا معنى لها سوى الهجوم والانقضاض على هذا الشيطان.. ولكنه لن يستطيع فعل أي شيء بسبب الأهالي الذين يتزايدون شيئاً فشيئاً لحماية مولا هم.

وقف الولي الآن بمسبحته الطويلة خلف الناس، هادئاً لا يُصدر صوتاً سوى صوت الأصابع التي تناجي المسبحة.. بينما الضابط كان يقذفه بنظرات ثاقبة ومريبة وقد عبس وجهه وتطايرت من قسَماته نار الغضب من خلال صفحته المكفهرة، ابتسم السيد فجعل يردد بصره بين الضابط وبين الجموع بهدوء ظاهر ومكر دفين.

انتبه الناس إلى الضابط الذي حاول اختراقهم ولكن عبثاً يحاول، سدّوا الطريق بأجسادهم ولوّح من كان يحمل سكيناً أو عصا بأيديهم عالياً، كإنذار للضابط على أن ما سيقوم به لن يمر بسلام.. سيدافعون عنه حتى لو وصلت الدماء إلى الركب. دفع الضابط أحدهم ليخترقه نحو السيد وما لبث أن صاح أناس لا حصر لهم:

- يريد اعتقال السيد امنعوه..

ومنهم من ردّد: اقتلوههم.

وسرت في المتجمهرين حركة عنيفة، حتى أسرع رجال الأمن لحماية الضابط، الذي ما لبث أن أمرهم بإخراج أسلحتهم، تتم على مسدسه ثم صار يصيح بحزم كأنه استمد شجاعته من وجود سلاحه:

- إن لم تعدلوا عن غبائكم فسوف تندمون، أنتم تتحدّون القانون، أكررها لا تتغابوا وستشقوا طوال حياتكم على تصرفكم.

سرت في المتجمهرين هذه المرة حركة عنيفة، فأقبل متحمسون من كل صوب ملوّحين بالعصي والسكاكين والمراكيب حتى ارتعد الضابط وانسحب بين مجموعته بحكمة، وأصبح بينه وبين الغاضبين مسافة طويلة.. فرسخ عنه بعض الحماسة التي كان يتمتع بها حين أتى ليعتقل الرجل.. ولكنه نجح أن يجمع جأشه ويصمد أمام هذا التيار العشوائي من الناس الغاضبين، دارت عيناه فيما أمامه يبحث عنه، فلمح وجه غريمه السيد.. الذي وقف بثبات وشجاعة خلف الحشد، كانت عينا الضابط تفوران بالغضب والبغضاء، حتى تقدم بحركة غريزية وصوب مسدسه وأطلق رصاصة نحو الهواء وهو يصيح بصوت جهور:

- الرصاصة الأولى ستكون في السماء، أما الثانية فسأصوبها في قلب أحدكم. ارتعد البعض.. وثبتت الأغلبية على عنادهم، ولكن في النهاية لم يجد الضابط من المتجمهرين من يتراجع عن عناده، فاستفزّه تصرف الناس.. فغضب بشدة حتى ساد صمت فجأة.. حتى قطع السكون صوت السيد:

- دعوه - صاح بحقن - هؤلاء جاؤوا يقصدوني فدعوني أنفاهم معهم قبل أن تُراق دماء أبرياء.

تجاوبت في أرجاء المكان دمدمة غاضبة، تعالى الهتاف هنا وهناك «ليسقط أعداء آل البيت» وصاح غيرهم «أدبوا أولاد الزنى»، «الكفرة أحفاد يزيد».

عندئذ تقدم السيد شاقاً صفّ الحشد الغاضب، واثق الخطى ثابت الإرادة، رغم محاولات سارية منعه من التقدم بجذبها وشدها لذراع والدها الذي نحى سارية جانباً.. ظلّت تمسك به، حتى تجاهلها ونفض يدها عنه.. كانت تحاول منعه من التقدم ولكن محاولتها لم تثمر في صد والدها عن التقدم، فسحوا له الطريق، وتقدّم نحو الضابط بعينين ثابتتين.. تُركزان على وجه الضابط بحدّة، رمشت عينا الأخير وكأنه ينظر إلى شعاع الشمس، فرك عينيه وما إن كفّ عن الفكّ وفتحهما.. حتى انتفض من مكانه عندما رأى السيد ثابتاً أمامه كالصنم يثقبه بنظرات جليدية، هنا تغيّر الموقف، بادره السيد بقوله:

- أنا جاهز لأحضر التحقيق أيها الضابط.

- أ... أ... السيد المدير طلبك وعلينا تنفيذ أوامره.

- حسناً ما دام هذا ما يطلبه سيّدك فأنا قادم.

لكن الغضب بلغ بالناس مداه، شكلوا على هيئة نصف حلقة حول الاثنين وهم يتدافعون بالمناكب وكأنهم يتأهبون للهجوم كأكلة لحوم البشر عندما يثيرهم قطعة لحم نيئة.

كانوا يتوعدون الحكومة والضابط شراً.. في حال لو حصل مكروه لمولاهم، فأطلقت أصوات السيارات عاليًا كالهدير قبل أن تنطلق مُرحبةً بالنصر.. والناس يهتفون ملوّحين بأيديهم:

- علي وياك علي.. علي وياك علي...

وبعزم لا يُقهر رفع يديه وهو يزق بالجمهور قبل أن يستقل السيارة:
- اسمعوا يا شيعة علي الكرام، هو عبدٌ مأمور، والمدير له كل الحق أن يحقق معي، ولا تنسوا أنهم علمانيون وعقولهم ليست بمستوى عقولنا التي كرّمنا بها الله بحب الدين وآل البيت، ولا بد أن هناك من أبلغهم بأنني مشتبه به، وعليه سوف أذهب وأقابل المدير وأحل المشكلة ولست قلقاً لأنني أعرف أنكم لن تتركوني. «قال الجملة الأخيرة وهو يحدج في عين الضابط متعمداً كرسالة تحذير».

بهذا أنهى حديثه الخطابى، حتى ساد الصمت المريع، وأمر السيد بالناس أن يفتحوا الطريق لكي يتسنى للسيارات التحرك. الصمت وحده الطاغى في هذه الساحة، وأيضاً طغى الصمت الثقيل على الضابط بعدما كان مليئاً بعزيمة الرجال، ولكن لم يكن يتصور مدى خطورة هذا الرجل ومدى استماته الأهالي لإنقاذه.. حينها أدرك الضابط بأنه أمام رجل ذي نفوذ والوقوع عليه مؤذٍ.. كالرجل عندما يقع على كومة حديد وتتكسر أضلاعه.

- هيا أيها الضابط أنا مستعد.

وببطء غير معهود أمر الضابط مجموعته بالمغادرة.. متجهين نحو مقر مديرية الأمن العامة في هدوء غير مرحّب به من قبل الجميع.

كان المساء يزحف في خطوات حاسمة غاشياً الطرقات والأزقة والمآذن والقباب، حين أحضر السيد إلى المديرية، وبالتحديد إلى غرفة المدير.. التي كانت محاطة بهالة من الأضواء زادت من المكان رهبة وجمالاً. ولعل المدير لم يعدل بسروره بهذا المساء، الذي قلّ أن يُرى بها مسروراً، إلا زهوّه بإحضار سيد سامي له، كأنّه صيدٌ طال انتظاره.

مثل السيّد أمامه، لم يسمح له المدير بالجلوس حتى على الأرض، وكأنّه يتلذذ بإهانة السيد، فلم يردّ حتى على تحية الأخير له.. بل قذفه بوابل من الأسئلة التي لا حصر لها.. ففوجئ بها السيد ولكنه أجاب على كل شيء بذكاءٍ وأدب.. وبدون أن يثير أيضاً غضب المدير العارم عليه، يتلمس أثر ردة فعل أجوبته في وجه المدير، ويتهمياً للسؤال الأقدر.. فليس هؤلاء الأوغاد سؤال شريف ومحدّد.. الكل أولاد زنى.. حتى هذا الثور الكبير برأس التيس لا يقل عن السفلة بشيء.

- إذن ما رُوجَ عنك تعتقد أنه إشاعة.

- سيدي المدير أنا معروف في الهارثة وأنحائها.. وتقريبًا أكثر مناطق جنوب العراق يعرفونني.. وزياراتهم شيء طبيعي لي.. ومثل هذه المظاهر تراها حاضرة في النجف وكربلاء، فما الغرابة أن يكون بيتي مركز زيارات الأحياء والمُخلصين؟.

شدّ المدير قوس حاجبه ثم قال محتجًا:

- مظاهر عادية؟ صورك تُباع في الطرقات وفي الدكاكين.. الناس تحلف بك، وقد وضعوك في منزلة النبي وتقول مظاهر عادية.

أحنى السيد رأسه مغمغماً:

- أستغفر الله.. وما بيدي أفعله لهم.. أمنعهم سيدي المدير فأنت القانون هنا وتعرف أكثر مني بهذه الأمور، هل تظن بأنني سعيد بذلك؟

- بالطبع أنت لست المسيح.. ولا حتى نبي، ولكنك انتشرت بينهم كمرجع ديني وتكاد أن تبلغ مراتب أعلى.. من يدري.

هنا احتدّ صوته واشتعل الغضب بداخله شيئاً ما، ولكن السيد كان يحافظ على هدوئه وابتسامته وكأنه يتكلم مع صديق قديم.. وتعامل مع الموقف بأريحية تامة:

- كل شخص حُرٌّ في تقديسه لمن يُجلّ ويحترم ما داموا لا يؤذون أحداً.. إذا كانوا يريدون ذلك فهذه هي درجات عقولهم.. إنهم مُخَيَّرُونَ.. لو كانت

لديهم ذرة عقل لا يقتنوا أني بشر عادي والواسطة غير مطلوبة بين العبد وربه.. وأنا نفسي لا أضمن إن كانت دعوتي مستجابة أم لا، وفي نفس الوقت لست ساحراً أو أفافاً، أنا رجل بسيط لا أبغي سوى العيش الكريم. داخل السيد سرور ماكر، لاحت في عينيه الحكمة والدهاء، ركز في عيني المدير بهدوء وأدب حتى احتار المدير في اختيار كلامه، فكلام السيد منطقي ولا شيء يدعو لأن يعتقله أو يهينه، ولربما بمرور الزمان ستنجلي أشياء لا يعرفها بعد.. ولكن كل شيء في وقته مُستحب.

لاذ بالصمت الآن، فمضى يسأل والسيد يجيب بذكاء.. وينجو من فخ الأسئلة بمهارته، وكان يجيب بلا تلوؤ وبكياسته المعهودة، رغم الحقد الذي يهيج بداخله على المدير..

الحديث دار في جو مشحون، مع العقيد حاجم الذي لا صلة له بالتدين لا من قريب أو من بعيد، كان شعاره:

«الخمر والنساء».

أمّا الدّين ورجاله فكان يمقتهم بشدّة، وعندما حلّ سيد سامي عليه في هذا المساء الهادئ، كان في ودّه لو لديه صلاحية إعدامه.. بل وإعدام كل رجال الدين على الفور.

فجأة سمح للسيد سامي بالجلوس.. تغيّر موقفه وأظهر بعض اللّين معه؟ رغم ما يحيش في صدره من حقد عليه.. وما دام الإعدام مستحيلاً

فلماذا لا يحاول كسبه إذن، ألف صديق ولا عدو واحد، فهو قد خلق
لنفسه هالة وقدسية عظيمة بين الناس.. وليس بعيد أن تتفوق قدسيته
بعد فترة من الزمن على قدسية الملك نفسه.. ويتحقق الانقلاب الديني
على العلمانية فتفسد الدولة ويتوه العباد.

وسيسمعه الجميع.. وستكون مناطق الجنوب تحت تأثير حركته الدينية
وسينجح في تجييشهم لو أراد ذلك.

وهكذا سينجح في قلب الشعب على الحكومة الملكية بالتعاون مع جهات
معادية.. فهناك أعداء يتربصون لمستقبل العراق ولا سيما أن الحرب
الباردة قائمة على الملك.

رجال الدين في العراق أغلبهم يُعدّون مرجعيات، ولهم كلمة حادة
كالسيف يغير الواقع الجنوبي للعراق في ليلة وضحاها.
لو يُعتقل هذا السيد الآن، فهذا سيكون الغباء بعينه.

حينها سيخرج أكثر الجنوبيين، لنصرته، فهو بعينهم «السيد سامي» -
قدّس سرّه - حفيد آل البيت كما يدّعون، وتركه بلا مراقبة هو الغباء
بعينه، ولا سيما أن عيون الأعداء يتتهجون بهكذا مظاهر باتت تسود في
أرجاء المملكة وسيدعمون كل ما يخدم مصالحتهم.

اتقاء لتكدير المدير قال السيد:

- سيدي، أرجو أن تعلمني إذا أنا أخطأت شيئاً، وجلّ من لا يسهو، فالزائر الذي يأتيني إما يأتي لفتوى أو لحل مشكلة من مشاكل الحياة التي تكدر صفوهم.. ويعلم ربّ السماء أنني كنت منصفاً في كل شيء وخادماً أميناً للكل، ولا أطمع إلا بالآخرة.

لاح في تقارب حاجبي العقيد حاجم صيغة مناسبة لأول مفاوضة حتى قال دون تردد:

- حسنًا، ولكنني أريدك في الوقت نفسه أن تكون عيناً على أمن الوطن وعيناً ساهرة ضد كل من تسوّل له نفسه المساس بشخص الملك.

رفع السيد حاجبيه وسأل:

- كيف لا.. وهل تعتقد أنني لا أفكر بذلك؟ ولكن سيدي المدير هل هناك شيء ما أضرّ بأمن المملكة؟

- لا، والأمن موجود ومستتب.. ولكن كما تعلم فالغرباء يستغلون الأهوار هرباً من شاه إيران ويدخلون أراضيها بشكل غير قانوني.. نريد منكم توجيه أتباعكم بإبلاغ السلطات عن هذه الخروقات.. وتبلغون أيضاً الجهات الخاصة كل شاردة وواردة من شأنها أن تقع.. وأن تُبلغ حوزاتكم عن رجال الدين المندسين والقادمين من إيران إلى المملكة بدون أوراق رسمية.

- تأكد سيدي المدير بأنني سأكون أول من سيبلغ عنهم فأنا ضد كل من يحاول الإساءة للمملكة.

بهذا الحديث خُتم اللقاء وغادر السيد بعد أن مدَّ يده للمدير الذي صافحه بدوره.

كان البلد عند تأسيس الإنكليز الدولة العراقية الحديثة غير مستقر تماماً، بسبب ثورة العشرين التي قامت بها عشائر الفرات الأوسط وبدفع من رجال الدين من أهالي الجنوب بأنفسهم، فوقفت القيادات الدينية ضد أغلب الإجراءات الضرورية لبناء الركائز الأساسية للدولة الوليدة، الفتية، وذلك باتخاذهم مواقف متشنجة ومتشددة ضد السلطة، فوقفوا ضد المعاهدة البريطانية - العراقية التي ما كان بالإمكان الاستغناء عنها في تلك الظروف القاهرة، وإلا لقامت تركيا بإعادة احتلال العراق، أو على الأقل إلحاق الموصل بها.

وفي عام 1922 نشر المجتهدون من رجال الدين في جنوب العراق فتوى عن الانتخابات ورد فيها:

«صدر منا تحريم الانتخاب في الوقت الحاضر لما هو خفي على كل باد وحاضر، فمن دخل فيه، أو ساعد عليه، فهو كمن حارب الله ورسوله، وأوليائه، صلوات الله عليهم أجمعين».

وقد طرد الملك فيصل الأول وقتها شيخ الشريعة الأصفهاني وآية الله النائيني والخالصي وكبار المراجع الفرس المشاغبين من النجف عام 1922 إلى قم.

حيث لم يوافق جلاله الملك على عودتهم حتى طلبوا العفو عام 1924، فسمح لبعضهم أن يعود شرط احترام القانون.

وكان من الضروري للملك فيصل الأول أن يفعل ذلك في بداية عهده لتركيز احترام الدولة والقانون.

وشكل تأسيس العراق الحديث لموقع إيران في الخليج العربي ولمصالحها الاقتصادية في المنطقة توترًا كبيرًا.. وسعت الحكومة الإيرانية دائمًا إلى الحفاظ على تأثيرها في هذا البلد، وتعكير الشؤون الداخلية العراقية.

والحق أن إيران كانت تحاول باستمرار إضعاف العراق وتتمنى لو تجهض أي محاولة لتأسيس جيش وطني عراقي.

وفي عام 1925 ربطت الحكومة الإيرانية اعترافها بالعراق بقضية حماية العتبات المقدسة لكن عامل الزمن والدعم البريطاني كان ضدّ إيران.

وهكذا كان جهاز الأمن قلقًا من ظهور أو صعود شخص قد يكون ممولًا من الغرب أو من أي جهة أخرى معادية لتغيير مسار السياسة في العراق وربطها بالدين.

- حسنًا كل شيء يبدو طبيعيًا، بدأ التمدد.

قالت القابلة، كانت امرأة جميلة قصيرة القامة ونحيفة، ترتدي رداءً طويلاً، وكانت حميدة تخفي وجهها بين الوسائد مع كل تقلص، لكنها لم تكن تبذل أي جهد، كان الاضطراب سائداً فأيقن «رفعت بيك» من وجوب إحضار الطبيب.

الدقائق تمر ببطء مثير للغیظ، لا يُسمع سوى صراخها وغمغمات خافتة، كان «رفعت بيك» يسأل الخدم فيما لو أن سائقه وصل مع الدكتور أم لا؟ وفجأة وبعد أقل من ساعة تقريباً سُمع أحد الخدم ينادي من باب القصر: - بسرعة لقد وصل الدكتور.

يدخل الدكتور مسرعاً، أخذ رفعت بيك على عجل ليقوده إلى غرفة النوم، ثم قال رفعت بيك وهو يلهث من الاضطراب، كفريسة لهياج غريب: - لقد بدأ الأمر يا دكتور.

- هل تشعر بالآلام؟

- منذ أكثر من ساعة، كل دقيقتين.

وقبل أن يدخل الدكتور نقر الباب بمفاصل أصابعه قبل الدخول إلى غرفة النوم التي تتواجد فيها حميدة.

بصوتٍ مختنقٍ أجابت إحدى الخادמות:

- ادخل.

دخل الدكتور مسرعاً وبقي رفعت بيك في الخارج ينتظر، بينما وجه زوجته في الداخل يتقلص من جديد، جلس الدكتور على كرسي خلع الأحذية، عندما سمعها تشتكي أدار وجهه لها:

- اضغطي.

- لا أستطيع يا دكتور.

نهض الدكتور من مكانه ثم قال «رأس الطفل هنا، إنه صغير».

مرّ أكثر من نصف ساعة ولم يتغير المشهد والقابلة تحاول جهدها لكي تخفف عن حميدة تعاستها وبجانبتها الخادمتان.

انتابها الألم فقال الدكتور:

- اضغطي بقوة.

تقلّص وجهها، لكن عندما اختفى الألم، بدت متوترة وكان صوتها واهناً، تردّت حالتها وبدأ القلق بالتصاعد.

بعد ساعتين وبالتحديد - 12 - صباحاً كان التمدد مكتملاً بالفعل والطفل لا يخرج، وحميدة تصرخ ولكنها ما زالت لا تُسهم من جانبها بأي شيء لكي تكمل العملية بالنجاح.

عندما اختفى رأس الصغير من المخرج، وبدلاً منه ظهرت ذراع صغيرة براحة يد مفتوحة مهتزة، كأنها تودع أو تحيي.

ظلت الذراع هناك ساقطة ومترهلة بين ساقبي حميدة المنفرجتين، خرج الدكتور عن طوره وشعوره وقال محافظاً على هدوئه:

- اللعين يقوم بالالتفاف، كأنه شيطان.

قامت القابلة بدهن ذراع الصغير بمادة أخرجتها من حقيبتها وبحركة سريعة ومحترفة وخيرة، أعادت إدخاله إلى بطن أمه.

أمسك الدكتور بكتفي الوليد بأصبعه النحيفة، وبمهارة شديدة أداره بحيث وضع الرأس الصغير مجدداً في مدخل فرجها.

أخذت حميدة تصرخ وتسب من دون وعي كل شيء، ورغماً عنها، شعرت بقوة متراكمة في الحوض، صرخت، وضغطت بكل قوتها بينما تشجعها القابلة.

- نعم، هكذا، هكذا، أنت قوية.

وفجأة..

كأنه مقذوف.

انطلقت قطعة دموية من اللحم الوردي مندفعة بقوة، تراجع رأس
الدكتور لتفادي التصادم، وحطّ الوليد على الفوطة البيضاء التي تحملها
القابلة بين ذراعيها خلفه بقليل.

حميدة تشعر الآن بالإرهاك، خائفة القوى.

- طفلٌ ضئيل، يبدو قطعاً صغيراً.

قال الدكتور متطلعاً بدهشة واستغراب للوليد الضيف.

حينما عاد السيد إلى داره، كان يجتهد في تهدئة نفسه المطوّقة وهي تضرب بجناحيها مستريعة على حد السكين. لاقوه المئات من الحشد، بالترحاب والصلوات على النبي وآله، ولما انفرط الحشد، دخل الدار مع ابنته وزوجها ليرتاحوا ويجلسوا جلسة شاي عائلية ويشترّوا فيها حدث وما يجب صنعه في المستقبل.

يلا مس لحيته، يفكر في صمت، تعمق في التفكير بشكل أثار انتباه ابنته وحمدان، صَبَّت سارية الشاي بشيء من التوتر ولكن رغم ذلك فالابتسامة لم تغادر وجهها الجميل، كان حمدان يتمتع براحة نفسية لم يعهدها من قبل، لأنه أحسَّ بأنَّ السيّد لن يقلق بعد الآن من مواصلة ممارسة طقوسه الدينية، وما دام المدير قد أطلق سراحه فهذا يعني أنه سيظل بخير.. ولن يتكلّف أيضًا مجددًا بمجازفة حمقاء من شأنها إيذاء السيد وخصوصًا بعدما هاج أنصاره وكادوا أن يستमितوا لنصرة السيد.

بعد أن تبادلوا أطراف الحديث.. بادر حمدان بسؤال اعتبره السيد أحمق وبلا شك: - عمّاه، أرى أن المدير قد اقتنع بأنك أخيرًا لست ممن يضحكون على الناس ولا غبار من مكاتنتك المقدّسة بينهم، لماذا لا تمدّ معه حبل الصداقة وتكسبه.

تطلع السيد إلى حمدان بنظرة يكسوها الغضب والحق، وكاد أن يطلق من لسانه: لو لم تكن زوج ابنتي لنكحتك أيها الثور البرّي، ولكنه عدل عن هذا اللفظ ثم أردف:

- لو كان بيدي لمددت الحبل إلى رقبتك وعلقتك منه في السقف، ألم تفهم بأن هذا الرجل هو مدير الأمن.. غبي.

ازدرد حمدان ريقه بشيء من القلق، أما سارية فاكتفت بأن تحدج والدها بنظرة احتجاج على ما قذف زوجها من جواب غير لائق وبذيء إلى حد ما.. وبحضرتها، فأمرأة بالعالم ترفض أن يُسب زوجها من قبل أحد مهما كان. جمع أنفاسه ثم تظاهر بالهدوء قائلاً:

- أكسب مدير أمن فاسقاً؟ «هنا تطلع إلى ابنته وكأنه يريد أن يقول شيئاً آخر لحمدان فكتمه خوفاً أو احتراماً لمشاعر ابنته «وهل المدير بحاجة إلى حرز.. إنه سكير ولا يعبد إلا فروج النساء والكأس».

لم تكن إهانة السيد من قبل الضابط له وأمام الناس بالشيء الهين، عندما أخذوه من بيته كالمنذب إلى مقر مديرية الأمن، وكان فضوله يدفعه لكي يعرف فيها لو كان وراء هذه القصة «جودت بيك».. فمحتمل أنه أمر أحد ضباطه بتنفيذ المهمة بدلاً من أن ينفذها بنفسه.

بعدما صبت الشاي اقتربت منه كعادتها بهدوء بعدما كان والدها قد عاد إلى سُبَات التفكير كعادته.. متجاهلاً كل من حوله، متربّعاً على الأريكة كالديك، مدّت يدها أمام وجهه بالشاي الذي أصبح بمستوى واحد من عينيه،

وكأنها تفعل ذلك عمداً لكي تجعله يكف عن التفكير، ويا ليتها تعرف بماذا يفكر.. عاد إلى عالمه وتطلع إلى عينيها، قبلها في منتصف جبينها وتناول الكأس وشكرها بحنان.. كاد أن يأكلها في داخله، ثم عادت إلى مجلسها بتأنٍ ودلال مشرقة الوجه بابتسامة رضا، وأخذت مجلسها بجانب حمدان.

دار الحديث بشكل طبيعي حتى مالت شمس الضحى، ثم مالت أكثر في سكون. وأتى المساء وتوغل، واستتب الليل، والناس في بيوتهم واجمون من الأحداث التي جرت قريباً.. وبقيت القرية صامتة يداخلها خوف من الآتي وخوف من أن يفقدوا رموزهم الدينية مع الأيام التي لا ترحم. صالة الجلوس الآن فرغت إلا من السيد.. وكأنه بانتظار وحي.. ولكن وحي من نوع آخر..

أو ينتظر قادماً مجهولاً.. من مكان مجهول، من بين ظلام الليل الدامس، كان واقفاً أمام الشباك الذي يطل على باحة داره الخارجية، يتأمل بفضول في الخلاء.. بالتحديد في الظلام الذي يلف السماء.

رأى وميضاً.. سرعان ما تحول إلى شبح يراقص بين ستر الليل.. يستطيع أن يميز الظل من حماره، الذي يسبح في الفراغ... في ظلام الليل حيث يراقص تحت بقعة باهتة على الأرض، فأخذ يتمايل وكأنه في رقصه كلهيب يشتعل.. يكاد يكون الآن أكثر وضوحاً وهو يقترب أكثر وأكثر.. من السيد.

همس الصوت:

اهتزازات الفانوس وسط شواهد القبور بدأت تبعث الحياة في الضلال
النائمة، فقامت ورصدت شبحين يتسللان إلى المقبرة، السيد وقرينه، لا
أحد يرى القرين إلا صاحبه، لم يوقفهما كلب أسود يزجر أو قطرة تموء
حتى وصلا لفناء متواضع يكثر حوله الأشواك، همس الصوت:

- قبر أنتن رجل في التاريخ، زنى حتى بأمه عندما كان كهلاً في الأربعين،
مات وهو في الثمانين بعدما بلغ ما بلغه من عظمة الغنى.

مدّ السيد يده في غياهب الجلباب ليخرج مسماراً ليحفر على حجر القبر مجسم
نجمة سداسية.. كعلامة استدلال يهتدي به حمدان.

همس الصوت :

- ما أن يتم حمدان دفن البيضة هنا، ستبعثه لأمر مهم إلى مكان بعيد
ليعود بعد أن يتم أربعين يوماً.. ليتخصب البيضة.. وستجعله يتأخر
على قرينه.. وما أن يتأخر على موعد ولادة قرينه سينجز الأخير واجبه
ويقتله.. وستكون أنت بعيداً عن كل الشبهات، ستخلص من شخص
قبل أن يتخلص منك.

سكت برهة، كان السيد يستمع باهتمام شديد لتعليمات القرين :
- ستضاجع فتاتك الجميلة عندما تأمن ذلك.. وفي اليوم التالي ستكون
قد نسيت من ضاجعت بفعل السائل، ولكنها لن تنسى اللذة طالما
هي حيّة تُرزق وستتمنى المزيد.. إنها لذة الشياطين سنقذفها عليها كلما
احتجنا لذلك.

سادت مرة أخرى لحظات من الصمت.. ولكن الكلام يمتد، وكانت
الشهوة تتقد في داخل السيد كحيوان حبيس، وكانت الأخيلة تتوالى
في رأسه، يرجح ظناً، ويعود يرجح آخر، ولا طائل من إيقاف ما
سيقع، كالنار الموقدة تستعر وتضطرم، ومن ثم تلهب العيون وتحنق
بدخانها الصدور.

عندما أذن الله للصبح الطيّب بأن يطلع، كانت سارية تعد فطور الصباح قبل البدء باستقبال الزوار، الذين يتوافدون من مختلف أرجاء المعمورة من مناطق الجنوب العراقي، لكي يحصلوا على حرز الرزق أو المحبة أو الزواج.. يصنعها السيد لهم بابتسامة يجتهد في ضبطها والتحكم بها، فتغالبه وتسري في ضوء عينيه وانفراجه أساريه.



وتجلى النهار، وأشرقت الشمس.. كان حمدان يقف خلف زوجته الرائعة الجمال، يتأملها وكأنه يراها لأول مرة، يمسح مؤخرتها بعينيه المحمومتين، انتبهت صدفة لذلك، فلم تعهد حمدان بهذه الطبيعة من قبل، تساءلت واحتار حمدان في الإجابة أيضًا، فأخبرها لربما كان سحرًا من عمل والدها ألقى بينهما هذه الغريزة المفاجئة.. ضحكا لهذه الفكرة السخيفة وتمنيا لو كان هذا بالفعل ما حصل.

حدّجته بنظرة من طرفي مقلتيها، مصممت شفيتها ثم جدلت خصلة حول أصبعها بشهوة وهمست بدلال ذائب:

- ألن تعقل .. ماذا دهاك اليوم؟

- وهل يعقل المجنون، والجنون في أحشائي قد استقر منذ رأيته يا سارية، لن أشبع منك أبدًا حتى أموت ..

أسكتته واضعة أصبعها على شفثيه قائلة مقاطعة له بحنو:

- ستبقى لي، ولن تموت أبدًا، سأجعل والدي يحفظك لي وسنُخلد معًا.. سوف ترى فعل الشياطين.. أقوى من كل شيء آخر.

- لقد أمرني بالذهاب إلى البصرة لإنجاز عمل له وسأ تأخر.

- أعرف، آه وألف آه لو فكرت بالخيانة، ولو تضاجع إحداهن، سأقلع لك الخصيتين.

ارتعش بدن حمدان وطرده هذه الفكرة الدامية من مخيلته ولزم الصمت حائرًا، لا يدري بما يجيب.

مدّت بدورها يدها لتهدئ من روعه، مداعبة مناطق حساسة من جسده.. فارتعش جفنا الرجل ثم استسلم لمداعبتها حتى أتاها زعيق السيد من الخارج ينادي بالإسراع بالفطور لضيق الوقت.

انتفضا من الصوت المزعج.. وولى حمدان بسرعة البرق إلى الخارج تفاديًا للشتيمة، فعادت سارية لتركز في صنع الفطور الصباحي.

عندما كانت سارية منشغلة بإعداد الفطور، انتهز حمدان الفرصة وأدخل معه بيت الخلاء بيضة كان قد أخفاها في جيب الجلباب الواسع.. لكي يستمني داخل تجويف الإبرة ويحقنها بالبيضة.. وخز قشرة البيضة بحذر.. ليخترقها بتأن.. لكي لا يكسر البيضة وتفسد العملية.

ثم أفرغ كل شيء بنجاح.. ضاعطاً على أعصابه لكي تتم العملية بلا فشل، أفرغ حتى آخر قطرة من المني في جوف البيضة، استلّ الإبرة من جوف البيضة ببطء.. وصرّ كل شيء في كيس من القماش صغير.. ودسّها في جيب جلبابه.. ولكنه ظل محافظاً على وضع يده داخل الجيب كي لا تنكسر أو يفسد محتوى البيضة.. خرج مسرعاً عبر السلالم مستغلاً انشغال سارية بإعداد الفطور.. ثم أخفى كل شيء داخل بقعة السفر الموضوعة على الخوان.

نزل إلى السيد، يواظب على عدم إثارة الريبة في نفس زوجته الذكية.. فتحدّث هامساً مع السيد أن كل شيء على ما يرام.

- القبر الذي وصفته لك.. العلامة السداسية على الحجر الموازي لرأسه، «ثم مؤكداً» العلامة يا حمدان لا تخطئ القبر، مصير العمل مرتبط باختيار مدى دناءة صاحب القبر.

- لقد حفظت التعاويذ التي سألتها على البيضة أثناء دفنها فلا تقلق يا عمي.. في اليوم الحادي والأربعين سأكون هناك كما قلت لي.

- تأكد أنك ستدفنه بعد منتصف الليل.. تخرج من هنا لتقضي بعض الأمور ولا تعد إلى البيت بل اتجه إلى دار السائق.. فهو سينتظرك بعد منتصف الليل ليأخذك إلى البصرة.

هنا دخلت سارية بصينية الإفطار تبتسم، وجدتها يتها مسان على غير عاداتها، شكّت في الأمر وسألتها على الفور:

- اليوم لستما على ما يرام أعتقد أن سرّاً عظيماً تخفيان عني.

قهقه السيد، فهو يعرف جيداً مدى ذكائها، ولذلك حاول تبرير ذلك بسرعة قائلاً:

- زوجك يسألني عن نوع هدية مناسبة من المفروض جلبها لك من البصرة.

- نعم.. نعم، السيد يشاركني الفكرة لا غير.. وها هي المفاجئة قد فسدت حبيتي.

تطلع السيد إليه بحنق ولم يُعقب.

وضعت الصينية بأريحية ووجه مبتسم ثم بدأت تصب الشاي أولاً قبل أن تبدأ بتوزيع الأرزفة الحارّة، التّم الثلاثة حول على مائدة الفطور البسيطة على الأرض، ثم قال السيد موصياً حمدان:

- حمدان.. إن رأيت أبو جعفر أخبره أنني مستعجل جداً في تجهيز المواد، إنه

عطار جيد وبارع في اختيار المواد الجيدة ولهذا لا أستغني عنه.. لطالما كان

يلبي حاجاتي على مدار سنين طوال.

كان حمدان دائماً يَحْذَرُ من غضب السيد، يعلم أن غضبه موارب، يحمل له الامتنان لتزويجه ابنته، ولكنه لا يستطيع أن يعيش العمر كله بلا قوة ولا سلطة كما السيد، فهو أيضاً من نسل السادة - أي حفيد آل البيت - على حد تفكيرهم، والسيد مُقدَّس في مذهبهم.. ولا كلام يعلو على كلمته..

أمام حمدان الآن القفز إلى مصاف الغنى، فهو يعلم أن السيد يستغل شهوة حمدان في نيل القوة، وها هو الآن يقدِّم له الإغراءات.

سوق الدجل والسادة والمعممون هي المطحنة، التي اختاروها لسحق عظام الناس، فهم يوكِّلون أمثال حمدان لتمرير الطعم لجوف الناس، بصبر وتؤدة.

حمدان وأمثاله كالأفعى التي مررت إبليس للجنة، كالسيد يدخل في حياة الناس الآن عن طريق ممهدين لهم، هنالك أمثاله من العشرات في العراق ومناطق أخرى.. وربما نستطيع القول المناطق التي ابتلاها الله بشر أعمالهم ويظنون أنهم يحسنون صنْعاً.. سلَّط عليهم دجلة.. وسفلة، والسيد كأنه تاجر يخشى من غائلة السوق الآدمية التي يتعامل معها، عليه بتوخي الحذر.. ولكن حمدان.. كان كالعادة صفر اليدين في كل.. هذه أحلام السيد باتت تتسع لبلع البلد كله.. والسيد يؤمن بأن المال يستوجب الركوع ومن لا يركع لا يحصد إلا اللكمات.

غادر حمدان مساءً إلى البصرة.. ولكنه لم يقصدها فعلياً، فكما اتفق مع السيد فالسفر المبكر فقط هو لتمويه سارية لا أكثر، انتظر في بيت صديق

وعندما حلّ الظلام انطلق إلى المقبرة، وصل إلى القبر وتأكد بعدما رأى
وتحسس بأصابعه نحت النجمة السداسية على الحجر.. بأنه القبر المقصود..
أخرج البيضة برفق شديد من البقعة ودفنها بحذر بجانب قبر الميت، خرج
بسرعة من المقبرة متجهاً إلى بيت السائق الذي سيقلّه إلى البصرة.

وهناك:

تغلغلا في جوف شوارعها عميقاً مخترقين أحياء نبتت على خاصرتي المدينة
حديثاً، حيث يزداد الاختناق، وتعيث الرطوبة فساداً بالأجساد.

كان يفكر بالبيضة التي ستحدد مصيره، فعليه ألا يطيل الغياب.. أربعون
يوماً وسيتغير كلّ شيء.. كلّ شيء.

فهناك حياة، مستقدرة، تجد نفسك مغموراً في دنسها، حتى لو نازعتك
النفس في التخلص من قذارتها..

ستبقى راسباً بين لزبها ومنتها.

غياب حمدان لم يؤثر سلبيًا على سارية رغم الأيام القصيرة لسفره، بل صارت نشيطة أكثر في أمور البيت.. عندما سأها أبوها عن سرّ هذا النشاط غير الطبيعي.. أجابته لو عاد حمدان من سفره فالأفضل أن يلقاها بوجهٍ مستبشر لا حزين.. يجب أن يلقاها وهي أكثر تألقًا ونضارة.. بل لم تترك للحزن والغم والهم فرصة لتأكلها.. ولكي لا تزيغ عيناه ويتأكد في نفس الوقت من أنه قد تزوج من امرأة تختلف عن سائر النساء، امرأة قوية.. وجميلة.

لم يكن والدها يُعلّق.. بل كان يُخطّط لها.

صارت رائقة البال، لا تضيق بمطالب الزوار عندما كانوا يطلبون العجب منها من طلبات كثيرة.. في أثناء فترة انتظارهم للدخول على السيد في ديوانه الذي توسع كثيرًا.. يسمعون ضحكاتها وهي تكرر كالماء العذب المندفَع من الجبل بعد ذوبان الثلج.. بجسمها البض، تنتقل من مكان لآخر.. بل صارت تتحمم كل يوم مرتين، تكحل عينيها، وتدهن شعرها الجميل اللامع بزيت اللوز، فأصبحت كزهرة أزهرت في الربيع، وأينعت وتكاثفت أوراقها بمختلف ألوانها، وردية وقرمزية وصفراء وبيضاء،

كانت تشاغل الناس ببهائها، تشبك عابر السبيل فيرفع عينيه، ويراها تجلس كحورية خلف الشباك، كانت تتطلع هي أيضاً ولكن على مفرق الطريق عسى حمدان يعود إليها مبكراً. تعرف أن الوقت ما زال بعيداً لعودته، ولكنها ترى بعين الخيال عودة الغائب الحبيب.. وما تزال تنتظر.

كانت أخيلة غريبة تزورها وهي نائمة، ظلال تراقص على جسدها المسجى في الفراش، وهي كاشفة عن ساقها الرائعتين كلؤلؤتين تلمعان وسط العتمة.. هبت من نومها فجأة ذات ليلة، فتحت عينها الجميلتين، اعتدلت جالسة يأكلها شيء من الخوف وكثير من القلق الذي لا يرحم جمالها، لم يبادرها بزيارة الظلال لها، ظلّت متربعة على فراشها.. تتحامل على نفسها لتكسب قوة وشجاعة على ما يحصل لها الآن.. فتحبس أنفاسها.. لترهف السمع.. همست:

- خيال.. فقط.

تحدّق في الظلام لا ترى شيئاً فتأكد أنه خيال.. فقط.

ثم قامت وتحسست طريقها إلى القنديل وأسرجته.. لتتطلع إلى غرفتها التي باتت كالمهجورة.. إلا من أثاثها. اندفعت غريزياً إلى الشباك تستجمع شتات نفسها التي أرهقها القلق، وضعت القنديل على مصطبة خشبية بجانبها، غفت ثم أفاقت مرتين، حتى سقط ذقنها على صدرها.. وظلّت نائمة حتى مطلع الفجر.

وصل حمدان إلى البصرة وتوجّه مع السائق إلى أحد المقاهي التي تعمل ليلاً أيضاً، وجلسا يحتسيان الشاي، استغل السائق هدوء الليل فاقترب من حمدان وهمس:

- هنا توجد حسناوات تدفع لها وتبيت عندها، أحسن من الفنادق.. وما تدفعه هناك تدفعه هنا.

تطلّع حمدان بفضول ثم قال له:

- ألدّيك معارف؟

- طبعاً وهل أنطق من فراغ.

- إذن نذهب بعد الشاي، التغيير واجب.

صعدا السيارة وانطلقا إلى جهة خمسة أميال، وتوقفت السيارة بهدوء في حي مظلم.. أمام دار متهالكة البنيان.. في حي شعبي.. أطفأ محرّك السيارة وترجلا بصمت.

أمسك بالسقطة وطرق الباب بهدوء.. وكان السائق يسلك وكأنه على معرفة سابقة مع أهل الدار.. خرج رجل له جسد نحيل.. عيناه عسليتان

تلتمعان كبريق ماكر، بدا كفأر مكتوم اللون.. سلّمًا عليه ودخلا الدار بأدب وهدوء.

تبادلوا الحديث في صالة الجلوس.. البيت كان عكس ما كان يعكسه من الخارج.. نظيف ومرتب وكأنه تم بناؤه حديثًا والأثاث نظيف وحديث.. اتفقوا على سعر مناسب لقضاء فترة الإقامة معهم، ثم قام حمدان لأخذ حمام ليريح جسده المنهك ويزيل عنه غبار السفر.

كان يستحم في جو من الراحة.. حتى اقتحمت عليه الحمام امرأة.. كانت لها قسماص منحوتة، واضحة، وجه أسمر يميل إلى استدارة وجبين واسع، عيناها سوداوان تميزهما سحبة في الجانبين ملحوظة، أنفها جميل وكبير.. وشفتاها ممتلئتان، وشعر أملس طويل يلتمع سواده في ضوء القنديل.

سألها حمدان:

- ما اسمك يا حلوة؟

- مريومة.

- مريومة.. الجميلة.. أنت غاية في الجمال.

- هل عندك شك؟

- لا بالتأكيد.. وإلا لما سمحت لك باقتحام الحمام.

قهقهت بمكر ثم قالت ساخرة:

- آه، مفهوم.. أراك كذلك.

اقتربت منه ثم أخذت منه الكيس وصَبَّتْه بعد أن صبت عليه الماء،
أجلسته وبدأت بتكيسه، اليد اليمنى، ثم الذراع اليمنى.. وتحت الإبط
ثم انتقلت بالتدريج إلى الأجزاء الباقية من الجسم.. تعرَّق بدنها ثم
تعرَّت، كانت امرأة بالغة الحُسن، ميّادة القد، وثدياها كأحقاق العاج،
خصيبة البدن، في ثدييها امتلاء.. عريضة الأكتاف والأرداف.

عندما انتهت من تكيسه صبت عليه الماء.. كانت تداعب المناطق الأكثر إثارة
في حمدان فيستشيط حرارة وشهوة.. خرجا من الحمام وهي تسير متهادية
يرتج جسدها الخصب الممتلئ ارتجاءً.. لم يكن في صالة الجلوس أحد..
وكأن السائق وزوجها قد ذابا كذوبان السُّكر في الماء.. تساءل حمدان.. فردّت
عليه بأن زوجها والسائق في غرفة النوم الثانية ثم زادت لتقتل فضول حمدان:
-إنهما مثليان.

سحبها نحوه وقبلها قبله سريعة حية طبعها على خدها الأسيل..
وصلا غرفة النوم.. حتى سمعا وطء السرير وهو يرتج في الغرفة الثانية
والآهات تصدح فيها، ابتسما ودخلا.

أعطته المرأة نفسها.. كانت نفسه تضطرم وروحه تشهق، وقد اجتمع
عليها نصل السكين والرجفة الحية..

ينهلان من كوثر الفردوس وهي تشتعل محرقة بالنار وكأنه أول ذكر
يضاجعها في حياتها.

داعبته وداعبها.. بجرأة غير طبيعية من الاثنين.. أثبت فيها حمدان رجولته، وأثبتت هي الأخرى أنوثتها التي لا تُقهر.. كان جسدها فائراً وخصيماً.. شهق مأخوذاً.. بدأ يمرر يده على جسدها حتى أسفل الساقين.. ألصق جسده بها ومرّ بشفتيه يقبلها ويقبلها ويدغدغها.

تموء كالقطة البرية، فيزداد الثور الهائج شبقاً على شبق.. ثم أmaalها وغمرها بجسده العاري الضخم، حتى طاشت فيه نار الفعل التي تعلو وتلتهب. أول ليلة لم ينسها حمدان، هكذا قضى الأربعين يوماً في بيتهم.. أكل وشرب وسهر وجماع.

في حين كان أبو جعفر العطار قد طلب من حمدان أن يترى حتى تصل المواد المطلوبة من النجف.. وقد تتأخر أسابيع بسبب سوء النقل. اغتبط حمدان لذلك.. لكي يكون لبقائه الطويل مبرر كافٍ يبرره لزوجته. وإذا تطلب الأمر أكثر فسيذهب إلى مكان البيضة ويتفقددها خلصة.. ومن ثم يعود أدراجه إلى البصرة وينتظر.

إذن كل شيء تحت السيطرة.

الأسبوع الأول لغياب حمدان:

اضطرت في الآخر أن تبتّ شكواها لوالدها.. أضغاث أحلام ربّها..
ولكنه يجب أن يعلم بما يجري لها.. لكن والدها أكّد لها أنها يجب أن
تشرب شراباً يملكه يساعدها على طرد الكوابيس.. وعليها أن تسمع
الكلام.. وسيختفي القلق والأرق.

رحّبت سارية بالفكرة.. وألحت أن يعطيها الشراب.. لكن والدها
أخبرها بعد المغرب هو أفضل وقت تتجرع فيه الجرعة لكي يعمل
مفعوله بانتظام.

اشتكت له بأنه أحياناً يثقل عليها الصحو في الظلام، فتشعل شمعة
وتروح تتابع شعلتها الراجفة والظلام على السقف والجدران.. كان
السيد جالساً حينها في الصلاة بهدوء.. إنه يوم راحته لا يستقبل فيه
الزيارات.. مستأنساً بوجودها وبوجهها الاسبرانزو الوديع المستغرق
في الشرح.

فحضورها الفطن وضحكاتها الرقراقة تقتل كل تعب ومشكلة تواجه السيد في أوقاته أحياناً.. ولكنه للأسف يجب أن ينفذ أمر أسياده، فهذا شرطهم الذي يتمسكون به.. لكي يحصل على ما يحصل عليه اليوم من قوة وهيبة. يعلم جيداً أنه يُدجّل على الخلق باسم الدين وآل بيت النبي، يستغل ولاء الناس الطيبين لصالح أعمال لا تمت إلى الإسلام ولا الأديان بشيء.

عندما حلّ المساء.. وانتهى من وجبة العشاء.. أعطاه السيد القارورة الصغيرة، وهو يراقب بعينين تقدحان شهوةً وخبثاً عاليين.. ظلّ يراقبها بشغف حتى شربته.

ثم وصّاهَا أن تذهب إلى الفراش على الفور قبل أن يكبس عليها النوم الثقيل.. فالشراب قوي المفعول.

لاحظ عليها بأن صدرها وظهرها ومنابت شعرها قد ابتلّت، يكاد يسمع دقات قلبها، قالت وهي تحاول أن تلتقط أنفاسها التقاطاً:

- نعست يا والدي.

أخذها من يدها وسحبها برفق إلى الأعلى وهي تتهايل وترنّح تكاد تفقد وعيها وتغرق في حلم سيدّر عليها عواقب غير متوقعة.

كان الجو لطيفاً والليل ساجياً والظلمة شاملة إلا أنّها كثيفة تحت عرش الطبيعة، رقيقة في نصف السطح الآخر المسقوف بقبة السماء المرصعة بالآلى النجوم.

وفىما هو كان يتأمل الخارج من الشباك وكأنه ينتظر إذناً.. استدار وتوجه نحوها وهى ممددة على السرير.. يسير الهوينى.. تسلل إلى أذنيه حفيف.. أو لعله همس.. بل أنفاس تتردد بين لحظة وأخرى فحملق فى الظلام سائلاً:

- أولست لى؟

- بلى هى لك.. والقادم لنا.. تذكر.

حرّك رأسه بالقبول.. واندفع بهدوء نحوها، اضطرب جسمه برغبة عارمة، صح له سوابق غير منكورة، ليس حتماً أن تقع بغيته على طراز سارية.. ميزة حُسن واحدة تغني عن غيرها.. وفى خطوات وثيدة محملاً صوبها، جلس بقرىها، مسّ بيده أحد ثدييها، بل تركه يصافح الثدي الآخر، ثم مدّ يده

إلى دائرة الصدر الناهد، صغيرة متنفخة، وحرّك ذراعه حركة ناطقة
بالتردد، غير مصدقٍ أن ما بين يديه لحم مختلف.. غواية من نوع آخر.
فتوقف متسائلاً بصوت خرج من بخار الشهوة منصهراً متوهجاً.
- أهذه سارية ابتتي.. كل هذا الحُسن فيها؟ الله يلعنك يا حمدان الثور.
لمس أهداب شعرها بأنامله وسوّاها.. وقد لاح إبطها من فرجة الفستان،
أملس ناصعاً رغم الظلام النسبي.. يتصل منحدره بأصل نهد كقرصة
العجين، حتى سرت في بدنه سكرة الهياج، وانقضّ عليها كما ينقض النمر
على الغزال.

لم يكن سفر حمدان إلى البصرة سوى خطة سوداء دبّرها السيد.. اتفق فيها مع العطار والسائق.. وذريعة تأخير المواد كانت اتفاقاً معقوداً بين السيد سامي وأبو جعفر. فالوقت مطلوب لتنفيذ مأرب السيد على رواق وهدوء البال، وأربعون يوماً كافية لإكمال كل شيء.

لا بد لحمدان من نهاية تُسقطه، نهاية لا يرجع منها.. وكل ما صنعه السيد لا يعود ذا قيمة حين ينفسك شخصٌ ما في جاهك، أليس كافياً أنه تزوج من سارية؟ ماذا يريد النذل بعد؟

ملل إتيان الفواحش خرج من أنفاس السيد، ولكنه كان بحاجة لسلوى جديدة لقلبه.. اقترب كل المتع، وكلّما عبر إحداها، وجد أن الحياة تضيق به.

يقعد في ديوان بيته فتأتيه الحسنات بعقول فارغة ويطلبن أن يجبلن.. ولا مانع لو كان الفاعل هو السيد نفسه بل بالعكس سيكون المولود مُباركاً فيه حيث ستنفحه دعوات الملائكة بالعمرمديد والسعيد.

النساء يعشقن التحديق، تعشق إحداهن أن تُسمّر عينيك بها لترتوي
أنوثتها.. والسيد يستطيع أن يزيد لها زهوًا، ونشوة.

المال، المتعة، الجاه، آخر المبهجات التي وصل إليها، صاحب القامة الراسبة.
المال يجفف الأخلاق، فلا أحد يهتم الآن بالمبادئ، الناس تعبت من
الحياة، والنساء حائرات.. يشكين من برود أزواجهن.. ومن الوحدة..
فلمَ لا أكون الأب الروحي لهن، بل للقرية كلها؟
قالها محدثًا نفسه.

لمح كلبًا أسود.. قذفه في سرّه بالسب متموجًا بسخرية لاذعة لحاله:

- أترأى جني أم كلب حقيقي؟

في هذا الوقت من الظهيرة تسيح الحيوانات كما لو كانت أصباغًا سيئة
الإعداد.. تشتهي قطعة لحم أو جيفة ملقاة على الطريق لتكون وليمة
مناسبة لبطونها.

لا يحب السيد أن يرى حيوانات متسكعة أمام بيته، تتحرك موجة غضبه
المتجدد ليُرسل شخصًا من أهل بيته ليعدها عن أنظاره بالضرب أو
التلويح بحجارة وقذفها عليها بغضب. ولكن الكلاب الأكثر بذاءة تمر
كل يوم من أمام بيته وتعوي عواءً مسعورًا ليستشيط السيد غضبًا ويبدأ
بالكفر واللعن من الذي أوجد هذه المخلوقات بلا فائدة.

الليلة عودة حمدان...

حضر السائق في الموعد المتفق عليه.. وكان حمدان مبتهجاً على قضائه الوقت مع السيدة، كيف ينساها وهي تمشي إلى اتجاه السرير بخطى وثيدة فيهتز ردفاها ويستقيم جذعها كالقضيبي ثم تنام عليه وتغطيه بجسد كله أنوثة.

تمتت بدلال وهي تودّعه:

- لا تنسني.

- أنساكِ.. كيف أنسى من أنستني نفسي.

- أنستكِ حتى زوجتك؟ «قالت بمكر».

- الله يلعنها. «قال باستياء».

كركرت ثم قبلته قبلة طويلة من شفتيه.. مصمصتهما وكأنّها أعلنت عن حرب لا مردّ منها ثم تركته ودفعته ضاحكة نحو الباب.

سافر حمدان مع السائق إلى الهارثة، يستذكران بفخر أحداث الأربعين يوماً التي مضت بسلام.. ثم قال حمدان بخبث:

- لم أعرف بأنك تحب مضاجعة الرجال.

لم يخجل السائق بل بالعكس اندفع ليحكي حكايته مع زوج السيدة صاحبة البيت قائلاً:

- أنقذته من ناس كانوا يضربونه بقسوة أمام داره، فشكرني وقدمني لزوجته، وفي الليل ضاجعت الاثنين معاً وما زلت.. فكما ترى أتصرف هناك وكأنه بيتي.

ضرب حمدان كفاً بكفٍ قائلاً بوجهٍ يحمل الدهشة والابتسامة معاً:

- أنت داهية يا حاج .

ظلاً يستعيدان ويستذكران لبعضهما أحداث الأربعين يوماً حتى وصلا الهارثة التي كان يُغلفها سكون الليل من دون أن يشعرا بالوقت..

ثم فجأة قطع السائق حديث حمدان قائلاً:

- عفواً للمقاطعة.. أين تحب أن تنزل؟

- أنزلني قريباً من المقبرة لأنني جلبتُ أمانة عليّ بتسليمها لشخص ما أولاً.. ومن ثم أتجه إلى البيت.

لم يبدِ السائق أي اندهاش من هذا الطلب بل أوصل حمدان إلى المكان الذي طلبه بكل سرور.. نزل حمدان وانتظر السائق أن يتعد ثم التفت يمنة ويسرة واندفع ببقجته مُندسًا بين المقابر. دخلها دون ارتباك، فرك كفيه قائلاً:

- وصلتُ إلى ما أبغي إليه، دقائق تفصلني عن السعادة.

مشى..

ثم تقدّم واثق الخطى بمشيته..

تقدّم بين الأموات.. مُركّزاً عينيه إلى الأمام، في نقطة لا يراها غيره.. عيناه تلمعان من شدة القسوة، يدوس على قبرٍ صغير غائر بلا رحمة ولا يلتفت.. حتى أبطأ من مشيته..

وصل إلى القبر..

القبر!

و.....؟

تمسّرت قدماه في الأرض، كادت عيناه أن تخرجا من محجريهما ولم تمضِ ثوانٍ على ارتبأكه..!

حتى حدث كل شيء في أقل من وهلة..

فانتفخت الأوردة في عنقه ووجهه وكادت أن تنفجر.. وكأنه تعرض لهجوم عاصر من قبل ثعبان الأناكوندا.. كالثور بدأ يقاوم شيئاً غير مرئي بلا جدوى.. حتى سكت بغتة، همد وارتحى وكأن روحه تنسل منه غصباً وبلا إذن، كالإرث بات يندثر..

وجهه يُشي بزوال المعاني، حتى همس بنفسِ واهن متهدج تملؤه حشرة:

.....5|||||||

سوادُ بلا قمر ولا نجوم ولا بشر...

سکون دام طویلاً...

حتى انبعث صوتٌ مفاجئٌ وكأنه كان يستريح من التسلية ثم عاد

ليواصل جنونه مع ضحيته...

لم يكن نباحا لكلب أسود...

ولا زئيراً لأسد فتكهُ الجوع...

ولا مواء قطة سوداء...

بل كان صوت حسيّس نار بلا وهج، التّفّ بغضب عارم حول جسده
المُلْقَى على الأرض كالثعبان يلتف عليه.. وكأنّه يريد أن يترك خاتمة
مناسبة على مشهد الرّعب.

ثم اختفى كل شيء في لحظة.. تاركاً حمدان جثة هامدة..
مُخلفاً وجهًا يابسًا.. وحُفراً على خديه بخطوط غائرة وكبيرة.. وانخسفت
عيناه في محجريهما كجزيرتين في محيط...
لفّ المكان هدوء... هدوء كبير يغلفه الخوف..
أمّا الجسد الفارغ من الروح فبقي مُسجّى على الأرض حتى طلوع الشمس.

بعد شهور من موت حمدان...

وبينما كان الليل يستبشر ببدره، وتدلّى كقنديل يتوهّج خفّفاً وطأة الظلمة
الرابضة في القرية...

كانت ولادتها عسرة، وكادت أن تشطّر جسد سارية وتهلكه إلى الأبد، كان
الجسد كوترٍ مشدود تحتمل ما لا يحتمله، حتى اندفعت الوليدة وسمعت
صراخها الواهن.

فحملتها بين ذراعيها باكية، تأملتها وقبّلتها فأحسّت بمذاقها على شفّتها.
وفاض حليبها فألّقت الفم الصغير حلمة ثديها.. فتحرك حشاها كأنها
تشق تربته نبتة طالعة.

لم يتغير السيّد، لا هوَ مسرور ولا هوَ بحزين.. هو الوحيد من البشر
الذي يعلم مصير الطفلة ومن أي شيء خُلقت.

أمّا بالنسبة للأم فلم يكن ذلك فرحاً الذي ملأها لأن الفرح يضيق. كان
شيئاً يسري في بدنها، يدخله الرهبة والفرح والوجل، تجمعت الحياة

ببدرها العالي وسماؤها بالتصاق فمها الصغير بحلمة الثدي والصدر
وكأنه نبع أو ديمة سكوب في سماء الله الصافية.

كانت تنمو بسرعة على غير طبيعة الأطفال، ففي شهرها الخامس وعلى
غير طبيعة الأطفال.. بدأت تحبو بسرعة وعندما بلغت السنة كانت
أسنانها قد اكتملت بدون أن تصيبها الحمى كما تصيب بقية الأطفال.

أثارت هذه المسائل تساؤلات الأم ولكن أباهما حذرهما من أن تتفوه بأي
كلمة للجيران لئلا يمس الطفلة حسد.. فما يحصل طبيعي للغاية.

السيد لا يعلم كم سيطول من الوقت وتختفي الجنّة الصغيرة.. عليه
أن يسأل قريته، ولكنه ينسى في كل وقت يكاد يسأل فيه عن مصيرها..
ولربها أنسوه.

كان في كل وقت يجلس بجانبها ويهمس في أذنيها:

- أخبريني من سيأخذك.

تطلّع بعينها البريئتين ولا تجيب.. تملؤها براءة الطفولة بابتسامتها
المفعمة البشوش. يجلسها على حجره.. يحاول الوصول إلى شيء...

أي شيء...

ولكن الطفلة لا تعي ما يقول.

البصرة 1931

بدت حميدة وهي تتمعن أنافتها في المرأة مشرقة.. قبل أن تخرج لاستقبال «جودت بيك» الجالس مع زوجها في الصلاة، بدت شديدة الإعجاب بنفسها، توفّر لها كل شيء، ولها ابن الآن قد بلغ الخامسة من العمر، وزوج غنيّ أخرق، و.... وعشيق وسيم.

والأخير بات يتغزل بها جهازاً أمام زوجها الذي أضحى كلعبة لا فائدة منه سوى أنه زوج بالاسم فقط. كانت تنصت باهتمام لما يدور من حديث بين العشيق والزوج، لا حبّاً في نباهة الزوج بل عشقاً في سماع صوت العاشق المحموم.

ارتشف رفعت بيك الشاي هدهوته المعهود وهم جالسون في الصلاة الفخمة بأثاثها وزخارفها الراقية.. قبل أن يسأل جودت بيك:

— أما زال الملك مشغولاً بأمور رجال الدين بعد طرح الخالصي من العراق؟

— المشاكل لا تغادر أراضينا.. حتى من بعد مبايعة الملك على حكم العراق

عام 1921 بمعاهدة مع بريطانيا.. وحتى بعد استقلال العراق عام 1930 عن التاج البريطاني وإنهاء حالة الانتداب.. ومعارضة الخالصي للانتداب سببت له مشاكل وخيمة مع الملك.. فضاقت بريطانيا منه ومن دور والده لتنفيه إلى الحجاز.. قبل أن يهرب إلى إيران بعد أن أدى مناسك الحج.

- على ما أعرف بأن هذه الاتفاقية كانت بنودها لصالح المملكة المتحدة بخصوص تسهيلات عديدة لهم.. تخص مرور القوات البريطانية إلى أراضيها في أوقات العمليات الحربية.. وبنود تخص التعاون معهم في مجالات اقتصادية عديدة.

- هذه المعاهدة مهمة للإنجليز وخصوصاً بعد ثورة العشرين التي كُبدت بريطانيا خسائر فادحة على أراضيها.. وبعد مؤتمر القاهرة عام 1920 بحضور وينستون تشرشل وزير المستعمرات البريطاني آنذاك أعلن عن تغيير جذري لسياستهم في العراق من استعمار مباشر إلى حكومة إدارة وطنية في العراق... والظاهر أن وجهاء العشائر في الجنوب ممن قاموا بثورة العشرين لم يرق لهم هذا القرار.

- ومع ذلك فمشاكلنا لم تنته.. وفي عزّ هذه الصراعات شكّا ملكنا عام 1923 للملك عبد العزيز من قبيلتين منتشرتين في العراق والسعودية من الغارات على طوارقنا في أواخر القيظ، نهبوا بعاراً وخيرات الله..

ونهبوا تابع الملك عبدالعزيز الرباعي أثناء تعرضه لغزوة عبر الحدود من العراق فسلبوا كل ما بحوزته من جمال ومتاع.. أعان الله ملكنا فبدلاً من الوقوف بجانبه لا نُجيد نحن العراقيين سوى الرفض والمعارضة.. يستر الله من القادم.. فنحن على استعداد أن نقتل الملك وكل من يخلفه.. أسألني أنا عن هذا الشعب.

- ولا تنسَ الآن شاه إيران أيضاً.. الذي يتربص بالمملكة من خلال تحريك رجال الدين ودسهم بين الناس لإثارة مشاكل لم تخطر على بال أحد.

قالها «جودت» بأسى واضح.. خفض عينيه للحظة متفكراً ثم رفعها فإذا بهما تعكسان نظرة قلق.. فتلاعب ديبب الحزن بقلبه حتى أدركت حميدة الموقف قبل أن يتحول المجلس الجميل إلى مأتم.. بعدما رأت بأن الصمت بدأ يُشحن بالتوتر فأزاحت كابوس الصمت بكلامها:

- إن لم تكفّوا عن حديث السياسة فسأترك مجلسكم المتهالك.. السياسة خارج الدار وليس هنا.. يُخْصُون الخالصي... يغتصبونه.. يموت الملك أو يحيا ليست مشكلتي بل مشكلة الفقراء.. نحن خارج هذا الموضوع فأرجو أن تكفّوا عن ذكر السياسة أمامي.. ضقت ذرعاً منكم.

كلامها الجريء أذهل الاثنين.. فحاروا بالإجابة واكتفيا بالضحك على طول لسانها وجسارتها.. فرمقها «جودت بيك» بنظرة متقدمة لسعت قلبها على الفور.

«جودت بيك» لا يحلو له الشراب من قلة إلا من الموضع المبتل بريقتها، ويدللها دائماً سواء بوجود زوجها أو أن يكونا على سرير واحد.. فتركن حميدة إلى إهمال زوجها.. وتتمنى زواله كما تتمنى زوال صفية. جودت بيك يعشق راحتها المخضبة بالحناء. ويرنو إليها بشوق وافتتان، ويصرّ على احتفاظه بها رغم كل شيء.

يرى جسدها المشوق وساعدها البض فيزهّد في النقاش، وعندما تُقدّم له الشاي يتطاير إلى أنفه رائحة قرنفلية ودّ لو تغوص شفتاه في لحمها الطريّ، فيتنهّد في سرّه بحرقة.



في اليوم الثاني كانت حميدة على موعد مع صفية تجلسان في مقهى كلاسيكي فخم على ضفاف شط العرب.. تحتسيان الشاي.. كان الحديث في بداية الأمر عابراً.. تتطرقان لمواضيع مختلفة وعابرة حتى تقصّدت حميدة بالتطرق لموضوع شخصي حول حمل صفية.. الأخيرة أخذها الفضول فهذا الموضوع المهم الذي يشغل بالها طيلة الوقت.

أحست بأنّها كندف الثلج تتطاير بخفّة في الهواء بلا صاحب أو استقرار.. الطفل أهم شيء تفكر به، حتى وإن كان زوجها لا يهتم بها كسابق عهده، ولكن المولود سيغيّر حتماً كل شيء وسيذيب جليد الانعزال بينهما وتعود المودّة لا محال.

قالت حميدة:

- الحق عليك.. أخبرتك من قبل أن آخذك إلى السيّد سامي وأنت ترفضين دائماً.. أحلف لك بالمقدّسات أنّ دواءك عنده.
- ولكّني أخاف من هؤلاء الدجلة.

انتفضت حميدة من كلام صديقتها.. فانتفضت معها صفية وجفلت على غرار ردّة فعل صديقتها وكأنّ مسّاً شيطانيّاً أصاب الاثنين.

سارعت حميدة بالاستغفار على الفور وصاحت بصوت خفيض:

- كيف تقولين هذا على حفيد آل البيت هل جنتِ؟

- آل البيت؟ وما دخل هذا في ذاك؟

- هذا سيّد سامي يداوي المرضى بلا عقاقير ويرزق الناس بلا أي شك..
يشفي الصدور العليّة و....

ضاقت صفية من هذه الكلمات ثم قالت بضيق شديد مقاطعة باستنكار:

- يشفي ويرزق؟ هل يحبي ويميت أيضاً؟

قالت بسخرية.

كادت حميدة أن تنقض عليها لو كان الأمر يسيراً.. ولكنّها تحاملت على نفسها لتحمل عناد تلك العاهرة كما تعتبرها دائماً لأنها نافستها وشاركتها في عشيقها.

ثم أردفت صفيّة:

- أليس هؤلاء السادة كما يدّعون بأنهم من نسل النبي.. فيتزاحمون على القاصرات ويستغلون الأراامل والنساء الجهلة ليتزوجوا منهن كمتعة؟ إنهم سبب تعاسة البلاد وشقائنا انظري إلى ما يفعلون في المملكة من تخريب، ولاؤهم ليس للعراق بل لجهة أخرى ولا أشك في ذلك أبداً.. لا دين لهم.

- صفيّة أنا جربت هذا السيّد وكانت وصفته ناجحة، حاولي أن ترمي بكل هذه الخرافات وراء ظهرك فقط للحظات وتمعّني عزيزتي في وضعك.. أنت امرأة تحتاجين إلى طفل وهذا الحال لا يتماشى مع ما أنت فيه من علاقة متوترة مع جودت الذي يرفض التعاون معك.. سيهجرك يوماً وبلا شك لأنه لا يربطه بك أي شيء.

- نعم ولكن ليس بطريقة عمل حرز أو سحر.

- وما هو الحل برأيك؟ لعلمك الحرز يفك المشاكل إلى الأبد.. أعتقد لو أن «جودت» يتركك للأبد عندها ستندمين.. تأخذه منك امرأة بارعة في الدهاء.. هل هذا ما تريدينه؟

أرعبت حميدة بكلامها فرائص صفيّة.. تتمت..

ولم تجد شيئاً مناسباً لتقوله.. ربما حميدة على حق.. فهي صاحبة خبرة في الحياة وصديقتها القريبة جداً..

بدت ساهمة وغامت عيناها وكأنها ترى كابوساً وسيأخذ كل شيء منها
بلحظة خاطفة.

- اعقلي حبيتي ودعيني أخطط لك هذا الأمر فأنا أحبك والله.

فكّرت بصمت، تركتها حميدة لتُفكّر وهما في طريق العودة إلى البيت
بسيارة حميدة الفخمة.. نزلت صفية متوترة والحزن يعلو وجهها، لم يكن
يومًا ذلك الذي ضاقَ به صدرها فاختنقت، بل يومًا بعد يوم بل مئة
يوم.. تدرّب نفسها على التعلق بقشّة الأمل وطاقة الضوء حتى ولو كان
صغيراً.. كانت دائماً قوية ماذا حدث؟

فالبت قبل زواجها تعيش في كنف والديها معززة، مدلّلة.. كالشجرة
وارفة الأغصان، والدها الغني لم ييخل عليها بشيء، فهي كل شيء له،
وعندما تقدّم لها الضابط الشاب اغتبطت وطارت من فرحتها، أحسّت
بأنه الفارس هو حبيبها وكل شيء في سفر حياتها.. وسيريحها إلى الأبد.

ولكنّ ما حصل بعد الزواج كان العكس تماماً.. أذاقها المرّ بعد أن شيعَ
منها، وعاشت في حومة تعذيب وبؤس، وحيدة لا صاحب لذلك الجسد
الشفاف كالزجاج الأملس.. فقدت إحساسها بأنوثتها، تركها، كبدن
مُجرّح وروحها كالطائر الذبيح تنتفض.

ربّما حميدة على حق!

اقترحت سارية على أبيها أن يجلب خادمة لتعاونهم في أمور البيت، فوكلها أبوها لإنجاز هذه المهام.. فجلبت معصومة.

امرأة سمراء من نسل عبيد متوارثين، كانت تعيش في منطقة الحيانية في بيت زوج خالتها، وكانت تخدمهم بكل نشاط.. يحبونها وتحبهم.. يتيمة الوالدين، تبتتها خالتها من الضياع.. هي في مقتبل الثلاثينيات، وافرة القد، وطويلة، لمعصومة وجه مختلف عن باقي النساء بلونها الأسود، فوجهها منحوت القسماة جميل ويميزه جبين عال، وبشرة لامعة، ولها أيضاً ميزة أثارت في السيد نارا لم يعرفها من قبل وهي وشم قديم على الشفة السفلى.

كانت بارعة في أمور إدارة البيت والطبخ، وبعد فترة قصيرة من خدمتها في بيت السيّد نمت الألفة بينها وبين أصحاب الدار. كانت تخدم الزوار بكل نشاط.. أعجب بها السيد كثيراً وكانت كلما ذهبت أيام إجازتها إلى بيت خالتها.. أغدقها بالفواكه المجففة والطحين وكل ما تحتاجه الأسرة من مؤن.

إضافة إلى السائق الذي كان يوصلها على حساب السيد كلما تطلب الأمر
لزيرة معصومة أهلها في الحياينة.

كانت معصومة سعيدة في خدمة السيد لدرجة أنها كانت تخاف من أن تحسد
نفسها بنفسها على هذه النعمة.. حتى كَفَّت عن الحديث للمعارف خوفاً
من زوال الخير.. حتى حدث شيء تغيّرت فيه الأمور وهاجت النفس
المطمئنة ولم تسكن بعدها.. فبقيت الهواجس تجتاحها دائماً.

في إحدى الليالي شاهدت معصومة السيد يتحدث إلى شيء غير مرئي..
كان كلما ازداد نعيق اليوم ازداد هو غبطة وإشارة لأمر لم تفهمه هي..
جالس في غرفته بجانب الشباك في حركات مبهمّة لا تليق بعمره المتقدم..
هل تراه يستمني؟ وماذا يفعل؟ هل يراقب من خصائص الشباك الخلاء
المظلم ولماذا؟ مع من يتحدث؟

كان هذا قبل أن يكرّر السيّد، مما أثار مخاوفها وتراجعت برعب وهي
ترقبه من فرجة الباب..

- هل هو مجنون أم يتكلم مع أرواح آل البيت؟ إنه سيد ولا بد من أوقات
محددة يجالسهم ولربما هي ستعكّر صفو الخلوة مع ساداتها.. وما رآته
قد يكون تخیلات التعب!

تركت المكان وحال استدارتها انتفضت من رؤية الفتاة الصغيرة
واقفة منتصبّة أمامها.. وكأنّها ظهرت من العدم.. تقذفها بنظرات

عبوس مليئةً بتهديد.. لمعت عيناها فجأة، جعلت معصومة تتبول على نفسها من شدة الهلع.. ثم استدارت الصغيرة ورجعت إلى الغرفة بخطوات وئيدة.. اعتلت السرير لترقد بجانب أمها بهدوء، قبل أن يملأ الارتعاش معصومة التي تحاملت على نفسها وأسرعت من خطاها فقط لتصل إلى غرفتها المظلمة.. أغلقت الباب على عجل، وأسندت جذعها عليه.. حتى تهالكت قواها شيئاً فشيئاً وجثت على الأرض وكأن الشيطان كان يلاحقها ساقاها ثقلاً حديد ورأسها يقرع كالطبل، زفرت بشدة تبديداً لخوف قشعر جلدتها قبل أن تُتمتم:

- أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق.

في لقاء معه.. أصرّت حميدة بأن تنهي فيها حياة صفية، كانت تتحدّث إلى السيد بشأنها - تشكو إليه بحرقه فاجعة زواجها من عشيقها وعدم إنجابها لطفل، والسيد يستمع بمكره المعتاد دون تعقيب إلى حميدة، كأن أنفه يستنشّق رائحة صفية.. يهيج السيد عندما يسمع حميدة تحترق بلذة المتلذّعة وتصف صديقتها بالعاهرة - سرقة مني - والسيد يستمتع بستمها لصفية.. تزيده شهوة على شهوة.. يتخيلها عارية تناديه بأن يعتليها.. زوجة الضابط الذي سيدفع ثمن ما طالهُ من أفعال رجاله الذين بعثهم ليقْتادوه أمام الناس إلى المديرية.

يراقب شفاه حميدة وهي تملّي عليه حكايات صفية التي خطفت عشيقها منها، وزادت حياتها تعقيداً.. ترتعش أناملها حينما تذكر اسمها، ويتهدّج صدرها بنفسٍ مضطرب حينما تذكر اسم عشيقها.. تغوص بذكراه.

والسيد يكتفي بابتسامة من طرف شفّتيه، وتارة يمسح بعينين راعشتين جائعتين إلى المزيد من اللذة.. رأسها إلى قدميها.. ليركّز نظره في النهاية على ساعدها المثقل بالذهب.

أردف:

- تريدونها لعبة بين أصابعك الناعمة.. تلعبين بها كما تشائين؟

اتسعت عيناها وقالت في غبطة وحقد:

- لعبة بين أصابع يدي.. كيف؟

- الأمر سهل جداً.. بالصبر نزيحها وقبل كل شيء تسمعين تعليماتي لكي لا يشك زوجها.

- كيف؟

غطى السيد كتفه بعباءته وقام من على الأريكة متوجهاً للمكتبة الكبيرة الموجودة في الديوان، وبخطوات هادئة مخفوفة بسكينة عالية في نفسه.. ما إن وصل المكتبة مال بجذعه على مجرّ.. سحب برفق.. وتحسس خلفه ثم لامست أصابعه كيساً صغيراً اقتلعه بخفة.. ثم رجع ليجلس مكانه، أشار لها بالاقتراب بسبابته.. اقتربت منه حتى تكاد تلامس وجهه تنظر إلى الكيس بوجل.. انتشى من عطرها ثم حرّك الكيس الصغير أمام عينيها كأنه ليغريها.. قالت:

- ما هذا؟ كيس سكر.

أطلق ضحكة سخرية خفيفة.. ثم أمسك ضحكته قائلاً:

- بداخل الكيس وصفة سحرية سيجعلها شخشيخة بيدك.

- اتسعت عيناها وسألت وهي تتفحص الكيس بعينين لم تخلوا من الحُبث:

- كيف؟

- على أن تعتاد هي على جُرعات عديدة وسيكلفك كل كيس مبلغاً من المال.

لم تهتم للجملة الأخيرة.. بقدر اهتمامها بما بداخل الكيس:

- لا يهم أخبرني كيف أجرب هذا الكيس.

- حسب ما علمت.. صفيّة تحضر كل يومين إلى دارك لشرب القهوة

معك.. تخلطين شيئاً قليلاً منه بالبن أثناء إحضارك للقهوة وترشفها

هي، يوم يومان ثلاثة سوف تأتي من تلقاء نفسها لا تستطيب قهوة

في الدنيا إلا قهوتك.. حينها أظهر أنا في الصورة تأتي هنا أقابلها وما

ستطلبه هي سيكون بثمنه.

- قصدك تُدمن على هذا الشيء؟

- بالضبط ونقبض على زمام الأمور وتزيجينها من غير تعب.

أزاحت رأسها وقد النقطت الكيس من يده.. تمنعت فيه ثم أطبقت كفّها

عليه قبل أن تدخل معصومة بالشاي. لزما الصمت حتى وضعت صينية

الشاي على الخِوان وغادرت الديوان بهدوء.

- خادمتك الجديدة رهيبة.

- من معصومة؟ نعم جميلة أيضًا.

- مريحة؟

- لم أجربها بعد - قال مردفًا بأسف -.

شردت قليلًا واشتعلت أفكارها على الفور، كما تشتعل النار في القش وتلتهمها من الجنون.

لاحظ شرودها فأيقظها السيد من سُبات أفكارها قائلاً:

- أراك ذهبت بعيدًا.

- ذهبت بفكري إلى هذه العاهرة.. كيف ستكون نهايتها.

- سيكون لكِ وحدك لن تنافسكِ أي عاهرة عليه بعد اليوم؛ السيد لا يُخطئ.

ضحكت بصوت عالٍ ثم أخرجت من صدرها محفظة من القماش فتحتها وأخرجت منها مبلغًا من المال وسلمته.. ثم لفت كيس القماش واضعة كيس البودرة في داخله وخبأته بين متاهات صدرها الثائر.

ناولت السيد المبلغ، تفحصه بسرعة فكسا الرضا وجهه ثم دس المال في جيبه.

أملأها بالتعليمات وكيف ستقوم باستدراج صفية إلى إدمان هذا الصنف ببطء لكي لا تثير شكوك من حولها وخاصة زوجها..

كان الجو حارًا.. الهواء لافح، والرمل في الخارج يتطاير كشهب السماء
لتخرق الوجوه والصدور.. كان سائق حميدة ينتظر كاطماً غيظه يلعن سيدته
وزوجها، واليوم الذي عمل به معهما، متى ستنتهي هي من الزيارة
المباركة، ويرجعان بسلام إلى البصرة.. ويتخلص من هذا الحرّ.. كان
يتساءل بغضب وإذا به قبل أن يتم السبّ المتواصل حتى ظهرت السيدة
وهي خارجة من الباب ليذوب غضبه وينسى اللعن، ركض باتجاهها
ليفتح الباب.. تغيير مفاجئ في لهجة اللسان الثائر.. الآن بدأ يتفوه
بكلمات تُعبّر عن الاحترام للسيدة التي قالت له:

- تأخرت عليك.. أعرف أن الجو حار وهالك.

- لا لا بالعكس لو حتى كنت ستأخرين اليوم بأكمله لن أكلّ عن خدمتك.

فتح الباب الخلفي لها لتجلس، ثم أغلق الباب بهدوء وأسرع إلى مقعده..
أدار محرك السيارة بابتسامة رسمها على وجهه، لينطلقا ويرجعا من حيث
أتيا «البصرة».

رأته يستمني!

يطلب اللذة الجنسية منفرداً.. كالعادة راقبته من فرجة الباب وكأنها التقطت شيئاً لا يقدّر بثمن.. كان الجميع خارج الدار عندما بكرت معصومة بالرجوع من السوق.. عرجت على غرفة السيد الذي لم يحس بها حتى اللحظة الأخيرة. لم تنتظر ليُكمل شعرت بشيء من التقزز للمنظر.. فغادرت المكان على عجل.

دخلت المطبخ وتصنّعت بالانشغال.. شردت أفكارها حتى..

وبخطوات هادئة وبابتسامة عابثة على وجهه الشاحب أخذ يقترب منها إلى أن بلغها ليقف أمامها مباشرة.

حدقت فيه بمزيج من الرهبة والذهول والرعب ليبدأ هو بصوت حمل من العبث أهواءه.. اقترب منها وبدأ يتمم بكلمات جعلتها ترتعش.. أغمضت عينيها وشعرت بدوخة ودوار شديد.. حتى بدأت تفقد وعيها.. أجلسها على الأرض.. وجثا معها يتحسس بيده تتلمس أماكن من جسدها.. هنا انهارت معصومة.

نفث هواءه في صدرها، اشتعلت الجذوة في صدر السيّد.. حتى امتدت
النيران إلى أنفه وعقله، تريد أن تقاوم ولكن عبثاً.

أحست بأنها مُكبّلة وما هي بمكبّلة.. كانت أنفاسها الحارة وهي ممدّدة
على الأرض تخمش روحه.. لم يلحس بل أكل الشفتين وأخذ يعصر
وينهل منها عصير النشوة.

غاص فيها كما لم يغص في امرأة من قبلها.. أصغت الشياطين والجنان
لصوت اللثم واللهثان.. القرين يبارك للسيد خطواته.. قبل أن يعض
شحمة أذن خادمتة.. لتسري الرعشة فيها وتلغي فكرة أن تقاوم هذا
الرجل المبارك.

يمتص الدماء من عروق الرقبة منتشياً من عطر جسدها أعلى مراتب
النشوة.. حتى اعتلاها.. اعتلى سماء معصومة.. خرّج جناحيها واعتصر
سحابها الداكن.. تتهدّج أنفاسه ويرتعش جسدها الثائر تحته، وهو لا
يُكف عن التتمتات وكلما زاد في القراءة تتسمر معصومة وترغب بالمزيد
فاقدة وعيها لا تتفوّه شفتها سوى بكلمتين:

- مولاي السيّد.

وضعت أربع ملاعق من البُن العربي المطحون ثم ملعقتين للهيل المطحون وتلتها كوبي ماء قبل أن تضعه على نار هادئة لتغلي القهوة بهدوء.

كانت صفية واقفة وراءها تبث كعادتها شكواها لصديقتها.. ثم تضحكان بعد قليل بلا توقف عن ذكر جودت في صولاته الغرامية معها سابقاً.. وصلت القهوة درجة الغليان ورفعتها عن النار قبل أن تفور برغوتها السمراء.. وضعت فنجانين ودلة القهوة في صينية فاخرة وتوجهتا إلى الصالة.. سبقتها صفية بالخروج من المطبخ قائلة:

- أحسن شيء أن تصنعي قهوتك بنفسك.

- طبعاً حبيبتي القهوة دليل ذوق المرأة.. فقط أنا من أجيد صناعتها وعلى مزاجي.

استغلت حميدة انشغال صفية بالكلام، فعمدت أن تمشي وراءها وتُصنّعها بانشغالها لكي تفرغ في فنجان صفية بعضاً من البودرة البيضاء.. ثم أخفت الكيس بسرعة.

جلستا على الأريكة وبدأ الحديث بأريحية عالية ثم بصب القهوة برغوتها الكثيفة الشهية، التي أثارت من عقب عطر الهيل انشراح النفس وارتياحها،

راقبتها حميدة بشيء من القلق لترى ردّة فعل صفيّة من مذاق القهوة الجديد.. أحسّت بشيء من قساوة المرارة عندما انعكس ذلك على وجهها.. حتى عاجلتها حميدة بالسؤال وبشيء من القلق كسا وجهها:
- أ... أعجبك؟

- نعم بالرغم من مرارتها ولكن هذا ما أحبه من القهوة.. هذه المرّة أعترف بأنك برعتي في صنعها.

ارتاحت أسارير حميدة وهي تلعن في سرّها السيد على دهائه.. وبعد ثلاث ساعات بدت صفيّة منتشية.. بانت كسندريلا ثملة، ولم يمر الوقت طويلاً حتى تدفقت النشعة في مساماتها ورأسها.. كان ثوبها قصيراً جداً والساقان ناصعتا البياض كعمود مرمر في معبد يهودي، كلما حرّكت ساقها انفرج ليكشف عن لباسها الأرجواني يستقر هادئاً ما بين فخذيه.. لمحتها حميدة وشهقت بهدوء، حيث نزل مساء ذلك اليوم بغتة.. مساءً سقط كستار مسرح كسا السماء صفاءً وبهاءً، أدركت حميدة أن خطتها نجحت، فهذا هي ترى التواء جسد صفيّة في جلستها كسمكة ذهبية تسبح في نهر هادئ.. تحسّ في نفسها بحيوية ونشاط.. حيث أثّرت القهوة على فيزياء جسدها.. ومنحنياته القياسية، حينما بدأ عقلها بالانطفاء، وتركت نفسها ليسقط سقوطاً حرّاً بين أحضان النشوة، مسكت برأسها ثم قالت بنعومة الأثني:

- أحسّ بأنّي أطرق أبواب الجنة.. وأدخل رياضها حافية القدمين، سأطير فوق خضارها باسطة جناحيّ في شرقها وغربها.
- أحسّك ارتحت جداً.. وأنا سعيدة لرؤيتي ذلك.

- فعلاً مرتاحة نسيت كل ما كان يشغلني من هم.. أشعر بإشراقة جديدة..
هالة من السعادة والثقة تحيط بي.. أنا ملكة اليوم.

زفرت حميدة بغیظها المعهود، زمت على شفيتها وأكملت في نفسها:
- ونحن الوصيفات أليس كذلك؟ بنت العاهرة.

ثم أردفت حميدة:

- سيوصلك السائق إلى البيت.. لا تجهدي نفسك حتى يرجع جودت
غداً وستكونين بصحة أوفر.

تخللت أناملها شعرها الحرير الذي انساب على جبينها فزاده تألقاً وجمالاً،
أضمرت الحريق في قلب غريمتها وأشعلت نار الهوى بإبطها الذي بان
من فرجة الفستان.. وبساقها اللذيتين كقصب السكر، رأت حميدة في
صفية ما لم تره طيلة فترة معرفتها بها.. هل انتقل إليها عدوى المثليات أم
أن البودرة مسحورة فطاش بصفية ما طاش من نشعتها؟

أرسلت صفية عينيها للسقف في شروث ثم داعبت السلسلة المتدلية في
الوادي المحفور في صدرها الذي يتفتق منه ثديان ناضجان كريمان.. تتكلم
بتأن وهدهوء وراحة.. وأنوثة هائلة ولسان يتحرك غنجاً.. حتى استسلمت
جنونها لإغفاءة إجبارية، قاومت الرخاوة بهز رأسها عدة مرات.. أعانها
حميدة على الوقوف ثم نادى الخادمة لإخطار السائق بإحضار السيارة..
وعندما رأت صفية قد استسلمت للنعاس احتضنتها وألقت ذراع صفية
حول رقبتها وقررت أن تذهب مع السائق لتضمن سلامة وصولها وهناك في
بيتها ستتدبر أمرها مع خادمة البيت.

البصرة «الهارة»

_ 1932 _

في صباح يوم هادئ.. كان موكب صغير قد استقرّ أمام بيت السيد سامي يتألف من أربع سيارات سوداء فاخرة، عندما نزل صاحب العمامة السوداء بوجه عابس وعينين متهكمتين زادته رهبة على رهبة.

استقبله السيد سامي بحفاوة ثم أدخله إلى الديوان الفخم الذي تغيّر كل أثاثه بعدما أغنته أموال الوافدين إليه وأصبح رجلاً يُقدّس سرّه في كل مكان.

اتخذ الضيف مجلسه على الأريكة التي تتوسط أريكتين خشبيتين في وسط الديوان.. وجلس السيد سامي على الأريكة اليمنى باحترام، أما الحراس فمنهم من انتظر أمام باب الديوان ومنهم خارج الدار.

كان حديث مهم يحمل في طياته سرية تامّة ولا يقبل التأجيل.. من خلال كلمات الضيف الذي تطرق إلى أمور المملكة.

أمّا السيد سامي فنزل عليه صمت الكهوف وهو ينصت بوجل واهتمام للضيف المهم:

- بعد ثورة العشرين خان الملك فيصل العهد بيننا.. قمع انتفاضتنا وأهلك رجالنا.. وقع معاهدة سلام بينه وبين بريطانيا ولكي يحمي الموصل من تركيا رضخ وبكل دناءة لسياسة لندن.. بعض مراجعنا الدينية رفضت سياسته وحتى إيران رفضت الاعتراف بدولته.. بريطانيا تضغط على الملك لكي يوافق على سياستها في العراق ومواجهة الانتفاضة في الوسط والجنوب ضد الانتخابات.. ومهازل الملك التي تستهدف رجال الدين الشيعة على الوجه الأخص.. لا نعتقد بأن الملك فيصل سيطول بقاؤه.. عامه سيتهي قريباً ولكن القادم هو ابنه غازي.. وهذه العائلة لو استمرت بالحكم فإنهم سيبدوننا نحن السادة، من ينسى لقاءه بالسيد الخالصي عندما قال له السيد «إننا نبايعك على العراق، على أن تسيروا بالحكم سيرة عادلة، وعلى أن يكون الحكم دستورياً نيابياً.. وأن لا يتقيد العراق على عهدكم بأية قيود أجنبية».. ووعدهُ الملك خيراً، كما في كل زيارته عندما يقول للناس شعارهُ البائد «الدين لله والوطن للجميع».

- نعم وأتذكر جيداً قبل سنوات عندما ألقى كلمته في المدرسة الجعفرية «بأنه وعد بإنتاج سياسة التسامح والمحبة وقال إنه لم يأت إلى العراق للبحث عن عرش أو فخر وإنما غايته خدمة العراق.. ولولا إلحاح أصدقائه ومجموع الأمة العراقية.. لما خطر في باله أن يأتي للعراق، وأن كل أعمال النهضة التي قام بها أفراد أسرته ليس بمطمع في شيء وإنما ابتغاء لوجه الله.

سخر الضيف وضحك بصوت عالٍ ثم أخفض صوته فجأة قبل أن يردف في أمر هام:

- وقد صدّق العراقيون به، يستخف بعقولهم، هو «يزيد» الحقيقي.. إنه صورة طبق الأصل لقاتل «الحسين».. والانتقام منه واجب.. سيّد سامي نحتاج إلى ثورة تكون الأخيرة ونأخذ بثأرنا المكبوت طوال أكثر من 1000 عام خلت ونحكم بعدها بعرة آل البيت وننهي حكم «بني أميّة» للأبد.

- الملك بضاعة متهرئة استوردتها بريطانيا لنا.

- لو بات الأمر كذلك سيفنينا الملك.. لن تجد هناك رأساً واحداً يعتمر عمامة سوداء، ألا يكفي أن يجرمنا من حقوق المواطنة ويُشيع فكرة «الأغلبية الشيعية الجاهلة».. وبهذا سيقضي علينا وبعد 100 عام لن تجد من نسلنا شخصاً واحداً يطالب بحقوقنا المغتصبة.. إذا لم نقاوم تطرّف الملك فلن تسلم العمام من بطشه بنا أبداً.

- أنا لن أتهاون مع سياسة هذا الظالم.. حتى ولو اضطررت أن أضع كل جهدي لإفشال قرارات ومخططات الحكومة.

هكذا ردّ السيد سامي بحزم.

هنا ابتسم الضيف.. ولوّح عن الرضا بابتسامته للرد.. راق له ما بدر من ردّة فعل من قبل سيد سامي.. ثم مال برأسه حتى كاد أن يلامس وجهه خد الأخير:

- سندعمك.. لدينا ما يكفي من حوزات.. وطلاب، وأناس يساندون كل من يضع يده بيدنا.. تأجيج الانتفاضات.. الفتاوى وكسب أكبر عدد ممكن من مقلّدين ومراجع.. حال إصدار الفتوى ولن يتأخر الشعب في التلبية..

وسيلبون بكل فخر فتوى مرجعهم بلا شك.. نعلم بأنك تغلغلت ببركة آل البيت في نفوسهم.. يحلفون باسمك ويغدقونك بالعطايا.. كل هذه الأمور قد نصبتك شخصية دينية لا يُستهان بها.. كان الخالصي يقودنا قبل نفيه بحكمته ووقاره.. وإذا فقدت شيعتنا المرجعيات فسيشتتون كما تشتت بنو إسرائيل، لدينا أفكارنا ونسعى إلى أن تُطبّق.. ونحارب انتشار أفكار بني عباس والأمويين.. هذا الملك لا يرحم وقد يهلكنا، فكما تعلم الأوضاع الخارجية متقلبة.. تارة مع بريطانيا.. وتارة أخرى مع إيران، وتركيا، أتاتورك بعد إلغائه الخلافة الإسلامية وإعلانه الدولة العلمانية صعد نجمه لدرجة أن أطماعه امتدت لانتزاع الموصل.. وإيران تطالب بجزء من شط العرب ولها أهداف إن تتحد مع أهدافنا لقضينا على الملك من الداخل وعلى دولته المدنية الحديثة وجيشها بالكامل.

- لقد نجح الوغد في نيل الاستقلال وكسب ودّ الشعب.

قالها السيد سامي بوجوم كبير.. ولكن الضيف قلل من أهمية هذا الموضوع قائلاً:

- لم يكد لينال الاستقلال لولا النقاشات الصعبة والحادة مع المندوب السامي «هنري دوبس» وكم من مرة تأزمت العلاقات بين البلدين.. سيد سامي علينا بضرب أي حزب يحاول أن يملك أيديولوجية وطنية تريد أن تتشعب بين الناس كـ «حركة الأهالي» التي تسعى الآن لتركيز دعائهم في الداخل.. ولا تنسَ أيضاً أن هناك مشاكل مع الأكراد.

- الأكراد؟ - تساءل السيد سامي - ثم أضاف مردفاً:

- لا يربطنا بهم شيء... يريدون استقلالية إقليمهم عن العراق.

- إن اتحدوا مع بريطانيا لربما سينالون الاستقلال.. ولكن قضيتهم قد طغى عليها اليأس بسبب موقف بريطانيا منهم، سيد سامي إن تحالفت الأحزاب وتشعبت جذورها فلن نطول شيئاً من السلطة.. وسيركلون بنا إلى مزبلة التاريخ.. لا أحد مُطلع على مذهبنا، إننا نحتاج إلى تصدير ثورة باسم الإسلام وفتح باب تشييع واسع كما حدث في العهد الصفوي الذي قطع دابر السُّنة وشيعت العباد في إيران.. فالناس إن أججتهم باسم «الحسين» فلن تتوقع ما سينتج من هذا البركان الثائر من عواصف.. لدينا من نعتمد عليهم بالسلاح والمال.. انظر إلى اليهود.. مثلهم في مجلس الأعيان العراقي «مناحيم دانيال» ثم حلّ محله ابنه «عزرا منحيم دانيال» كعين في مجلس الأعيان من هذه السنة المشؤومة.. نريد أن نضع يدنا بيدك وفي كل يد كل سيد له شعبية ومؤهل للقيادة.. فلا تدري غداً من سيحكم ومن سيظهر لتوحيدنا بمباركة مخلص الزمان «مهدينا المنتظر».

مدّ يده بيد سيّد سامي فشدد عليها ليتم الاتفاق بينهما على قدم وساق.

بعد ستة أشهر كانت صفية قد بلغت ذروتها من الجنون.. جنون الإدمان.. تلجأ إلى حميدة دائماً لكي تفيض عليها من خيرات البودرة وتغدها هي بدورها مبلغاً من المال. فكل ما يهملها هو مزاجها.. تلك البودرة الكريستالية البيضاء لا يقاوم النظر إليها دون التهامها.. تفرغ محتواها على يدها ثم وبشمة واحدة تغرف كل شيء ويستريح رأسها من الضرب.

بلغت مرحلة الاعتماد على استنشاقها.. كلما حاولت التخلي عنها فشلت.. فقد أصابها أعراض الانسحاب الذي لا مردّ من أمره. وصل بها أياماً أنها باتت تنوّل إلى حميدة لإعارتها كمية ولو صغيرة لحين رجوع زوجها وينفحها بالمال كالمعتاد.

حميدة التي كانت تمقتها بدأت ترتاح لما يحدث لصفية الآن.. تتلذذ من رؤية صفية قد ضاعت في متهاتات الإدمان.. وأحست بأن الوقت قد حان لعرضها على السيّد.. فهو قد طلبها له ما أن تصل صفية إلى مرحلة الإدمان الحقيقية.. طلبها لكي يغرف من رحيق عسلها وينهش لحمها.

رحّب السيد بالفكرة بعد أن أبلغته حميدة في زيارة خاطفة له بأنها تودّ إحضارها إليه.. ووصّاهما بالتريّث حالما يرسل سارية وابنتها ومعصومة إلى منطقة القُرنة التي تبعد نصف ساعة عن الهارثة.. لكي يَحْتَلِي بالأنثى الجديدة.. كما كان يفعل دائماً عندما تأتيه امرأة غلبها الإرهاق أو أمر أعاق عليها لذّة العيش.. ويتيح له فعل المتعة ثم تتوسع الأفعال إلى ذروة الرذيلة. كانت معصومة في هذه الأثناء تسترق السمع بحذر واهتمام.. قبل أن تتلقف أذناها اسم زوج صفية - جودت بيك - الضابط الذي كان يوماً مسؤولاً في أمن الهارثة.. قبل أن يشغل منصب أكبر والانتقال إلى عمله الجديد في مديرية أمن ميسان.

سمعت معصومة كل شيء، قبل أن ينتهي اللقاء بين حميدة والسيد، ابتعدت بسرعة عن الباب ولبدت داخل المطبخ وهي تسمع وقع خطوات السيدة نحو الخارج لتعود أدراجها مع السائق إلى البصرة.

ظهر فجأة أمامها كعفريت.. انتفضت وكأنها رأت شيئاً.. حدّجها بنظرات ثاقبة وجامدة.. لا تخلو من حقد، طال وقوفه أمام باب المطبخ، زادها ارتعاباً.. تحاول جاهدة ألا تفضح أمامه خوفها.. تشعر أنها قشة هزيلة، لم ينس السيد بكلمة ولكنه حرّك جذعه بهدوء ومشى إليها بخطوات بطيئة، ثم رفع يديه وأمسك بقوة كتفها كفك مفترس يمسك بضحيته.. أوجعها وكأن كماشتين قد أمسكتا بكتفها وستخلعه لا محالة.

قال:

- أنا السيّد سامي.. هذه القرية عبيدي.. كلها ملكي.. لم يعاندني إنسان حتى الآن على بلوغي هذا الجاه وإن فكر أحدهم وفعل فسأفنيه لا محالة.

كانت جبهة معصومة تتفصّد عرقاً غزيراً، وبدأت الرجفة تأكل منها وتنتشر فيها كما تنتشر النار في الهشيم.. زاد من الضغط وكأنه يُفرغ فيها شحنات الخوف.. مُركّزاً عينيه في عينيها:

- إن فكرتِ بالهروب من هذا البيت فلي رجال سيطولونك ولو اختبأت في عرين الأسد.. أيتها العبدة.. حينها...

انتظرت هي بفارغ الصبر لتعرف ما بعد كلمة «حينها»...

وعاجلها:

- سأقتلك.

كانت الكلمة الأخيرة كالنصل غرزها في منتصف فؤادها، انتفضت رُعباً.. قبل أن يتحوّل عنها مبتسماً.. ويرتقي الدرج المؤدي إلى غرفته بهدوء بارد.

لم تكن حال وتصرفات صفيّة لتعجب زوجها - جودت بيك - بسبب تركيزها القليل والمتشتت الذي بات واضحاً جداً.. تغيّرت ملامح وجهها ولم تعد تلك الغادة والفاتنة التي تزوجها قبل سنين.. لا فاتنة ولا غادة كما اعتادها من قبل.. فقد انطفأت نضارتها بشكل ملحوظ.

وفي لقاءه السري المعتاد في أحديوت حميدة.. أخبرها بكل ما شاهده في الفترة الأخيرة على زوجته من تغيرات مقلقة.. أخفت حميدة قلقها وارتابها، خافت من أن تكون صفيّة قد وشت لـ «جودت» عن أمر تعاطيها للبودرة.. سكّت.. تراقب ردة فعل عشيقها.. لم تطمئن حتى سلّمت الكلام من فمه.. عندما أخبرها بجهله بأسباب التغيرات المفاجئة التي ضربت زوجته فجأة.. وما إن تأكّدت حميدة من أن «جودت» لا يعلم شيئاً عن زوجته، ارتاحت واطمأنت بأنه غافل عن كل أمور الأحداث.. ثم قالت بثقة:

- لا تقلق فهي لم تتعود غيابك بعد.

- سأعرضها على الدكتور.

وكان شيئاً لسعها.. انتفضت قائلة:

- لا تحتاج لكل هذه الضجة هي بخير، عندما تتعود على غيابك سوف تعود لوجهها نضارته.. لا تدللها لكي لا تنقلب عليك.. فالنساء ما إن يرين دلال الرجال الباذخ عليهن سوف يثرن على واقعهن.. أنا امرأة وأعرف النساء جيداً.

ثم مسكته من تلايبيه وسحبته إلى غرفة نومها قائلة:

- أنا أريد أن أنسى البغل الذي في البيت.. وأنا معك.. وأنت الآن ترهقني بعاهرة.. أنتظرك لتأتي في كل شهر مرة لكي تعوضني الحرمان من الحب.... كفاك الحديث عنها.

قبلت شفتيه ثم نزولا إلى صدره، ضمت أصابعه في كفّيهَا ثم همست في أذنه:
- أعشقتك في الدقيقة ألف مرّة.

التمست البهجة في عينيه، رأت قليلاً من الشرود قد غلّفه.. فتحاملت على نفسها بالاحتفاظ على ابتسامتها.. عبست كما تعبس الأنثى عندما رآته في وضع الجمود.. أشاحت بوجهها في دلال، فلامس ذقنها في حنو حتى أردف:
- أنا أيضاً أحبك ولكن لا يجب أن أهملها.

جاء صوتها مرتويًا بالتذمر:

- لم أقل لك أهملها، إنها فقط قلقت عليك.. سفرك جديد عليها لم تتعود أن تفتقدك لشهرين، تتأثر كما باقي الإناث ولكنها ستعود كما كانت.

قبلته من شفتيه حتى أثارته، فدخل في صراع مع أنوثتها ونهشها، لكنه لم يؤلمها ولو مرة.. كان يمس أصابعها الناعمة الواحد تلو الآخر.. ومرر أصابعه على ساقها.. يمس وجهها ويتبع انحناءات أذنها ودائرًا حول شفتيها بأصابعه الرقيقة.. أدارها.. يعلم جيدًا أنها تحب التدليك.. فدلکها بمفصل أصابعه على عمودها الفقري. يرى انسياب شعرها على ظهرها كنهر من الظلام.. خلع آخر قطعة حريرية من جسدها.. وكان هواء الليل باردًا على جسدها العاري.. فارتجفت شاعرة بالخدر يأكل كل جزء منها.. فألقاها على الفراش ثم غرقا في نشوة عميقة.

عاد وقت الفجر إلى داره.. يترنّح من السكر.. فكان الظلام والسكون يخيمان على أرجاء المكان، قضى ليلة حمراء مختلفة عن باقي الليالي وكأنه ضاجعها لأول مرة في حياته.. كانت تتساقط خطواتها في داخله كغيث الأمنيات، اخترقته كرمح ثقب الفضاء.. شامخة.. فاتنة بسحرها.. وعطر جسدها حتى كان يتموج من إبطيها بتكاسل.

كانت العتمة تغلف الصالة فأشعل نورًا خافتًا، تمشى إلى المطبخ فأطلّ برأسه على الخادمة.. فرآها غارقة في النوم فأغلق باب المطبخ بهدوء.. ثم عاد إلى الصالة وجلس مرهقًا بعض الشيء.. أشعل سيجارة، واسترخى.. أرجع رأسه إلى الوراء دقائق وشهق براحة.. ثم انتهت نفسه أن يأخذ كأسًا من الويسكي من بار البيت.

مسح شعر رأسه بيده ثم قام نحو البار.. صبّ كأسًا وارشفها بسرعة ثم الثانية أمّا الثالثة ففضل شربها بتأنٍ.. رجع إلى مجلسه في الصالة وشرذ لحظات في عمله الذي تغيّر فجأة.. لم يكن يريد أن يترك البصرة.. ولكن منصبه الجديد يُحتم عليه ذلك.. سيبقى على الأقل سنة حسب ما ينصه قانون الخدمة.

صح قد خسر المصدر الذي كان يكسب من خلاله أموالاً وهدايا تأتيه من وجهاء العشائر الذين يصدقونه بها في كل وقت، لقاء إدخال بضائع مهمة كانت تأتي عبر الحدود.. مخترقةً الكمارك.. كان يحمي مصالحهم.. ولو صحّت له الظروف لسبى نساءهم أيضاً.. ما المانع من ذلك؟ ولم ينسّ تهاونه في تهريب المخدرات التي كانت تدخل من إيران «الترياك» الأفغاني.. الذي يتشع الفؤاد منه قبل الرأس.. ويُغرق السوق السوداء بشتى أنواع البضائع المهربة بفضلِهِ وبإسناد من «رفعت بيك». سيطر عليه التعب وتحامل على قدميه لكي يرتقي السلم الحلزونية التي تقوده إلى الطابق الثاني من الدار، متى توصله قدماه إلى الغرفة ليتخلص من بنطاله وقميصه.. ويرتدي بيجامته الحرير ويستلقي بثقله المتهالك بجانب زوجته بسلام.

أمسك مقبض الباب الذهبي وأداره ثم دفع الباب بهدوء، تفاجأ من النور يشتعل.. تغيرت قسماته ورفع حاجبيه مستغرباً.. احتلّ أساريره شيء من الهلع.. عندما دخل الغرفة ورأى صفيّة تحتضن طاولة المكياج مُنكبّة على وجهها بلا حراك.. أسرع إليها كالقذيفة رفع رأسها وبدأ يهزها برفق قبل أن يلاحظ غبار البودرة على أطراف أنفها وملطّخةً خدها بكثافة.. كانت.. قد فارقت الحياة.

- ماتت؟

قالها وقد جحظت عيناه.

- زوجها بعث رسولاً من عناصره إلى زوجي ليبلغه بالأمر.. ونحن ساعدناه على دفنها.

- متى حصل كلّ هذا الكلام؟

- قبل أسبوع.. وما إن فرغت من واجباتي حتى جئت أخبرك.. ولا سيما أنك كدت تحترق لالتهامها.

اضطرب السيد وتضاعدت أنفاسه في صدره ولكنه يحاول ألا يُظهر أمام حميدة سوى رباطة الجأش.. ثم استطرد:

- اسمعي ما حدث لن يمر على خير، زوجها ليس برجل سهل، في هذه الفترة بالذات ستتوقفين عن زيارتي حتى إشعار آخر.

ضربت حميدة بسخريّة على صدرها وأردفت:

- مولاي، ألا أزورك وأخذ منك بركات آل البيت.

قالتها بدلع بالغ حتى كادت أن تُدخل يدها في سرواله فمنعها مبتعداً
بضع خطوات.. عبس وجهه وضاعت روحه منها ثم قال:

- ستزوريني لكن أنا من سيحدد الوقت.

تصاعد القلق في وجهه، الدماء كادت تغادر وجهه، على عكس تلك
العاهرة التي تشفت بموت ضرّتها.. سألها وكأنه يريد أن يستعلم شيئاً
مهماً من حميدة:

- هل أعطيتها الكيس كله؟

- أعطيتها بإلحاح منها.. في أيامها الأخيرة كانت مجنونة جداً وكادت
أن تفضحني.

- أتعرفين معنى أن يجدها زوجها منكبة على وجهها وملطخة بغبار
البودرة؟ زوجها ضابط أمن وليس مواطناً عادياً..

قاطعته:

- لا تقل لي بأنه سيتحقق في الأمر.

- هل أنت مجنونة، طبعاً سيتحقق ولن يترك الأمر وشأنه.. بعد أن
يتحقق ويكشف الفاعل.. لن أضمن ماذا سينتج عن ذلك من عواقب
وخيمة.. خنّني بنفسك.

استنكرت حميدة ما قاله السيد حتى بدأ القلق يخمش وجهها وصدرها:

- هل تقصد أنها جريمة قتل؟

هز رأسه بنعم.. وفضل التزام الصمت.. فلا شهية تبقت للكلام معها..
فهذه العاهرة أصبحت مملة بالنسبة له.

- استنشقت الكثير.. وماتت.. لا أعتقد ستمر الأيام دون متاعب.

السيد لم يستطع قتل قلقه من الداخل.. لم يكن يتصور بأن الأمور ستصل
إلى هذا الحد بسبب غباء حميدة.. التي كانت كالطائر الجميل فانقلب فجأة
إلى غراب أسود مشؤوم.. جلبت له خبراً لا يدري كيف سينجو منه..
ومن قبضة زوجها ضابط الأمن.

عليه أن يقطع زيارات حميدة قبل كل شيء.. وإلا فزياراتها ستؤول عليه
بالخراب.. السيد لديه الآن أمور أهم.. اتفق على تنفيذها مع ضيفه وعليه
أن يشغل فكره بالتعامل مع التغيرات.

تلّفت حميدة بملاءتها لتغادر وقد طغى الوجوم على الاثنين.. كان ذلك
قبل أن تبعد معصومة عن الباب وتتصل بعيداً بعد التنصّت.. لبدت
كفارة مذعورة تهرع إلى جحرها.

انبلجَ الفجر، وبدأت الحياة تدب من جديد في يوم جديد.. يخرج الناس لطلب الرزق، بسطاء يخرجون للعمل اليومي ثم يعودون مع حلول المساء إلى دارهم كشمس مرهقة تنهي دورتها اليومية في الكون الواسع، لكي تؤوب مع المساء المظلم في إغفاءتها المعتادة.

في بداية هذا اليوم البهيج خرج السيد مع سائقه الجديد، في سيارة فارغة وفخمة.. وفرتها له جمعية دينية بإيعاز من السيد الحسيني، وكان سيد سامي على موعد مهم مع الحسيني لبحث أمر طارئ وضروري لا يقبل التأجيل، توجه إلى البصرة ليلتقي به ويتباحثا في أمر إضراب وتحريك الناس بفتاوى ستصدر من رجال المرجعيات الدينية المهمة قريباً.. ويجب تهيئة الأجواء الخطائية لدفع الناس إلى الاستمساك بمطالبهم.

وصل السيد سامي إلى فيلا السيد الحسيني في البصرة.. تلقى ترحيباً واسعاً من مُضيفه.. دخلا الديوان ثم اتخذ مجلسه قريباً من مجلس السيد الحسيني على الأرض المفروشة بأرقى أنواع السجاد الفارسي.

دخل الخادم وسقاهما القهوة، ثم انصرف تاركاً دلة القهوة والفناجين على الخوان، كانت نبرة الحسيني النشطة تعكس مدى ارتياحه من اللقاء، وعلامات السرور التي كست وجهه كانت تشي بذلك.. فأكسب سيد سامي طمأنينة وثقة أكثر.. نحى الحسيني عباءته ثم حرّك عمامته السوداء من على رأسه وحك شعره قليلاً ثم أبقى العمامة مرفوعة في الهواء قليلاً وكأنها ليدع الهواء يتخلل شعر رأسه، ثم أردف:

- دخل العراق اليوم إلى عصبة الأمم المتحدة، ونوري سعيد استقال.. وأمور الوزارات باتت بيد ناجي شوكت الآن، إن نجح ناجي في إحلال الأمن فلن يكون ذلك لصالحنا أبداً، الفوضى حالياً في بداياتها.. عمّت لتشمل مناطق واسعة من العراق، بريطانيا بدورها تبارك وتدعم العشائر والأقليات لأن ذلك سيساعدها على تنفيذ مخططاتها السياسية، وستظل معارضتها لسياسة الحكومة العراقية قائمة من خلال إضعافها عن طريق الجيش وافتعال الأزمات، ولا سيما موقف العشائر من قرار التجنيد الإجباري الأخير الذي تفرضه المملكة العراقية على أبنائها، وفي حال لو طُبّق هذا القرار المشؤوم فالتمرد والعصيان ورفع السلاح بوجه الحكومة وارد ولن نتراجع.

- عشائرننا معروفة بنزعتها البدوية، ونشاطها الاقتصادي غير مستقر.. ويميلون إلى نظام يفتقر إلى القوة، ولأنّ الجيش سيهيئ للسلطة فرصة ممارسة مركزيتها، فعلينا أن نقف بوجه التجنيد لكي نُضعف من شوكة الحكومة.

- يجب إقناع الناس بأن قانون التجنيد سوف يسحب الرجال من الأراضي الزراعية، وبالتالي فإن الإنتاج للأراضي سيقبل.. سيد سامي أهاليينا في الجنوب يجب أن يقتنعوا من خلالنا بأن هذه الحكومة لا تخدم مصالحهم وأن دينهم في خطر.. وخطوات الملك تهدف إلى إضعاف الشيعة.

مال الحسيني برأسه وهمس:

- بريطانيا تدعمنا، ولا سيما أنها تدعم عشائر المنتفك، وتدعم أيضاً أبرز رؤساء الغراف «صكبان العلي» و«حنون العبيد» وأيضاً هذه العشائر لها علاقات بارزة مع بريطانيا وهذان الشخصان لهما رواتب مخصصة من لندن ولن يخذلانا في أن نتحد ضد الملك.

- إذن الانتفاضة تنتظر الإذن منا.

- الأسلحة ستمر عبر الكويت إلينا، أسلحة بريطانية جديدة وبالتنسيق مع أمراء الكويت، وإيران داعمة لنا أيضاً في خطة ردع الحكومة وإسقاطها.

- إن لم نؤجج هذه الاضطرابات، فالنار ستأكلنا.. يجب أن نسدد الضربة جيداً قبل أن تخمد هذه النار ونكون في خبر كان.

- سيد سامي لديك الآن من الأنصار ما يكفي.. وفتاويك مهمة جداً لسند الانتفاضة، أنصارك يقدسونك ويحلمونك.. ليس فقط في الهارثة بل في مناطق كثيرة من الجنوب.. ازرع أول بذرة للخلاص لشيعتنا،

وأخبرهم أن شيعة الحسين في خطر - ثم شدّ قبضته - أخبرهم بأن أحفاد يزيد باتوا يزرعون منهج الحقد وسيحصدون رؤوسنا .

كان لقاءً حاميًا اشتدت فيه لهجات ولعنات قُذِفَ بها على الملك وحكومته ، واستمر اللقاء ساعات طويلة من التخطيط على أن يتم تفجير الخطة في ساعة معينة، حتى قطع وقت الغداء عليهما الكلام، تناولا الطعام ثم تكلموا بأمور أقل أهمية، وما إن فرغا من الطعام حتى غادر سيد سامي بسويغات فيلا الحسيني، حاملاً منه أذونات بفتاوى كانت قد أعدت ودُرِسَتْ من قبل أعلى المراجع .. يصحب خطواته بمباركة وتأيد موقع من أغلب المراجع في إيران والعراق .. ومبلغ كبير من المال، كانت قد دخلت في حوزة السيد سامي هبة السيد الحسيني له .

ولم تمر أيام على لقائه .. حتى كان صوته يصدح بين أنصاره، شدّد على جماعته بنشر خطابات التحريض في الحسينيات مستغلًا شعائر يزينها اسم - الحسين - مستشهدًا بثورته التي تأمر عليها يزيد لإفشالها، كان يُنادي بانتفاضة تقصم ظهر الحكومة الكافرة - على حدّ تعبيره - ثم أخبرهم بأن آل البيت نادوا بالعدل والمساواة ولن يرضوا بالجور المُسلّط عليهم .. ومن يرفض ذلك فعليه لعنة آل البيت إلى يوم يُبعثون .. فكيف يرضى عنهم الحسين .. وقتلته يتجولون أحرارًا، ويعيشون في الأرض فسادًا .

واشتدّت نار الفكرة وبلغت الزعامات العراقية التي لجأت لإثارة الثورات والتمردات العشائرية في مناطق الفرات الأوسط وإلى الجنوب العراقي، التي صممت ونادت بإسقاط حكومة الملك فيصل الأول.. والمجيء بحكومة أخرى موالية لها لتبسط نفوذها على الوضع السياسي القائم، فاشتدّت المصادمات وأصبحت العشائر أكثر عصياناً مستندين على فتاوى أججت الغضب المكبوت في الصدور وأشعلتهم نعمة على نعمة على هذه الحكومة.. فكانت الخطب في الحسينيات لها تأثير كبير على دوافعهم، حتى تقدّمت الدوافع الدينية على بقية الأهداف، فاقتنعوا من خلال سمو الخطب الدينية بأن يؤمنوا بأن الحكومة تسعى للانتقاص من شأن العشائر والتهوين من مكانتها.

استيقظ الناس في لواء البصرة على فتاوى أخرى تختلف عن سابقتها تندد.. الإطاحة بالحكومة العراقية من دون أي تأخير، وباتت حركات العصيان تمتد وتكبر كالنار في الهشيم، في ناحية - المدينة - وقضاء - القرنة - في البصرة شاركت بكل ما أوتيت من قوة بشرية لتنفيذ أوامر المراجع الدينية.. حيث بدأت في هذه المناطق حركات العصيان قائمة على قدم وساق، بينما المحاكم العرفية كانت منهمكة في تصفية قضايا الثائرين في الناصرية والديوانية، ومما زاد من النار لهيباً هو رفض الملك الاسترحام المقدم من وجهاء العشائر بإعفاء أبنائهم من التجنيد الإجباري.. فزادت من ثورة العشائر ولكنها كما بدأت بسرعة، تمت إبادة بالسرعة نفسها.. من قبل السلطة التي أبدت غضباً عظيماً عندما ضبطت لدى العشائر كميات كبيرة من البنادق البريطانية كانت قد هُربت إلى تلك المناطق المنتفضة.

تلقى - جودت بيك - أمراً بالتوجه إلى الهارثة لإخماد نار العصيان الذي اندلع فجأة.. لكونه عمل هناك لفترة طويلة ويعلم خبايا وأسرار ناسها، وما تخفيه صدورهم من أمور.

وأول عمل قام به في -القرنة - كان حضوره في اجتماع طارئ.. في ساعة متأخرة من الليل مع مدير الأمن ومدير المخفر - سعد التكريتي - كانت الجلسة يخيم عليها الهدوء ولكن سرعان ما نفّسهم ورّوّعهم إطلاقات نارية أطلقتها سيارة مجهولة سلّمت بسلام بعد أن تركت جثث عدد من القتلى لحراس المخفر، تحطّمت على أثر ذلك الهجوم صخور وجوه الضباط الثلاثة ومن معهم، حتى أمر المدير مستجيباً لحقد كان يخمش ب صدره وبضروس تطحن نفسها.. بشن وابل من حملات الاعتقالات على الغوغائيين.

زاره في ديوانه، فاستقبله السيد سامي بحفاوةٍ أكبر مما كان يستقبله قبل أن يبرق نجم ولايته في المنطقة كمرجع دين.. وواساه على مأساة زوجته أيضاً، هذه الزيارة المفاجئة التي قام بها - جودت بيك - أربكت السيد في البداية، ولكن ما إن شمّ رائحة السلام حتى احتوته الطمأنينة وجلس مع الضابط ينصت للموضوع المهم الذي جاء به.

- لطالما اشتقت إلى اللقاء بك مجدداً سيدنا، ويؤسفني أن زيارتي جاءت في مثل هذا الوقت العصيب.. وسأكون ضيفاً على مخفر الهارثة حتى إشعارٍ آخر.

- لا أبداً.. أعلم أن البلد يمر بوضع حرج ويعلم الخالق أنني أحاول جاهداً أن أهدئ النفوس قدر المستطاع.

- يريدون عبثاً أن يلغوا التجنيد الإجباري، وإبقاء المملكة ضعيفة، لا أعلم كيف يفكرون، ولكن الأمور تسير نحو الأسوأ.. الملك جاد في إخماد نار الفتنة ونحن بدأنا بحملات الاعتقالات التي ستساعد في القضاء على المتمردين.

لم يُعقَّب السيد.

بل ظلَّ ينصت ظاهريًّا، وفي سرِّه يلعن الملك وأبا الملك والضابط بل وكل أجهزة الدولة.

- سيد سامي نريد أن تعاوننا في هذا الموضوع، فكما نعلم أنَّ لك سلطة مطلقة على هذه المنطقة والناس يلتزمون بفتاويك والسلطة المركزية في بغداد واثقون منكم وبمقدرتك على إقناع المتمردين بالكفِّ عن التمرد والعصيان.. وسنوفِّر بذلك إراقة المزيد من الدماء التي طالت وستطول عناصر الحكومة والشعب.

- سأعمل جاهدًا لكي أساهم في تقليل المظاهرات، فأنا لا يعجبني أن أرى دماء تُراق لأُمورٍ كان من الممكن أن نحتويها بالعقل.

لم ولن يَصْدُقَ السيد في الحديث البتَّة، يناور كعادته، يريد أن يدفع هذا الضابط بعيدًا عنه.. بلسان ذرب وروح متعطشة لقتله، ولو طالت يداه لفتكه ودكَّ عنقه.. ينزَّ سُمُّه في جسد كل شخص يقف في طريق مجده، يملك روحًا فاسدة كمذر البيض فقَصَ قبل أوانه، أو كقطعة لحم فاسد، فلم تُبقِ وقاحاته نقطة رحمة في نفسه المريضة.. لم يخلق من طين.. بل من فضلات الشياطين، فهو كإبليس يتكلم مع الناس على هيئة رجل دين يعتمر عمامة سوداء.

بعد ساعتين غادر الضابط الديوان، أسرع من خطواته ورافقه السيد إلى الخارج.. قبل أن تنسحب معصومة من خلف الباب وتغيب كالفأرة في المطبخ.

في اليوم التالي:

كانت شمس الظهيرة قاتلة، حينما فكّرت معصومة أن تستغل غياب السيد الذي برح الدار إلى مكان مجهول للقاء مهم بينه وبين أحد المراجع من ذوي النفوذ المهمة، أخبرت سيدتها بأنها ذاهبة إلى السوق لشراء حاجات ناقصة تحتاجها للوازم المطبخ، لم تمنع سارية التي كانت مشغولة بتجديل ضفيرة صغيرة صغیرتها.. الجالسة في حِجْر أمها.. ساكنة، ملتھية بضم قطعۃ من الخبز.. أرخت الأم الضفيرة على كتف ابنتها بعدما انتهت من جدلھا وقالت:

- لا تتأخري فالیوم لدينا عمل كثير.

- حاضر خانم.

لاحظت منها نظرة إلى الصغيرة الهادئة، فحدجتها الأخيرة بنظرة جعلتها ترتجف حتى ضربت الرعشة أطرافها.. فنظرتها كفیلة بمضاعفة الرعب في داخلها.. كادت أن تقضي على روحها.. فلملمت نفسها وخرجت.. انسلت بسرعة خاطفة من باب الدار وفي أذنيها هسيس يقول:

- الأفعى السوداء تنتظرك.

لم تعر اهتماماً بادئ الأمر فظنته مجرد أوهام، ولكن ما إن بلغت السوق الشعبي حتى بدأ المهسيس يضر بها كالسوط على جسدها.. كالطرق المستميت على رأسها:

- الأفعى السوداء تنتظرك أيتها العبد.. سوداء مثلك.. كأنها توأمك.. تحاول عبثاً أن تتجاهل الصوت حتى دار بها السوق وكأنَّ ثُقلي السوق والسماء سيقعان عليها.. تحثُّ الخطى أملاً أن تصل إلى المخفر.. المسافات تمتد بطولها ولا تكاد تنتهي، وكأنَّ الزمن تغير.. والطريق إلى المخفر يمتد وعطشها يزداد.. وكلما توقفت لتشرب زاد عطشها.. تفصد جبينها بالعرق وكلما غسلته زاد العرق وزادت معها حُرقة في بطنها. سلكت الطريق الترابي العاري إلا من الرمال والأشواك.. جلست تحت ظل شجرة استجلاً للراحة.. ثم عاودت السير.. متعبة ولكنها تشعر بأن شيئاً من الألم قد زال، فأحست بالراحة.

بعد عناء وصلت إلى المخفر.. كانت قلقة فماذا لو ذهب تعبها أدراج الرياح ولم تجد - جودت بيك - مشكلة كبيرة.. فلن يكون بإمكانها أن تترك الدار مرة أخرى دون ذريعة مناسبة، فرصتها الآن لكي تُفرغ كل ما في جوفها من كلام.. أدخلها الحارس إلى غرفة الانتظار.. طلب منها أن تنتظر وسيحضر قريباً من يأخذها للقاء - جودت بيك -.. جلست وأسندت رأسها على الحائط تنفث الهواء الساخن من منخريها وفمها لتستجلب راحة مفقودة.

لم تنتظر كثيراً حتى ظهر - جودت بيك - كالشبح من العدم.

كانوا ثلاثة والسيد سامي رابعهم.. يعتصرون العائم السوداء، ولحاهم كحاحامات اليهود تغطي وجوههم.. تتخلل اللحى شعيرات بيضاء تسلفت بحكم الزمن.. مضيئة الوقار لهيئتهم. جلسوا جميعاً في ديوان قصر كبير يحرسه بعض الأشخاص. الجلسة سرية وطائرة لدرجة لا تحتمل التأجيل. بادر أحدهم:

- نشكرك لانضمامك معنا، وعلى كل ما قدمته من أمور خدمت الانتفاضة. ثم بادر الثاني مُربّثاً على حجر السيد سامي بهدوء:

- كلنا يجب أن نتحد في سبيل إرساء دعائم الدين الصحيح، وجهادنا ضد الظالمين هو هدفنا.. وإكمال لرسالة أبدية لمولانا أبي عبدالله الحسين. «سلام الله عليه» تتم الجميع، ثم أكمل الثالث:

- ولهذا كلنا قد قررنا بالإجماع أن نوليّك على أمور العامة من شيعة أهل البيت في الجنوب لتكون مرجعاً دينياً يمثلنا داخل العراق بدلاً من الحسيني.. فكما تعلم لا نستطيع أن نعلن ذلك علناً خوفاً من بطش الملك ولكن سوف ننقلك إلى إيران في حال لو قبلت أنت هذا القرار. - إيران؟

- حفظًا على سلامتك لقد وفرنا لك هناك سُبُل العيش الكريم لك
ولابنتك وحفيدتك حتى تتحقق الأهداف وترجعون للوطن.

- ولكن...! إيران...! والشاه؟

- الشاه لن يتعرض لك ولا لأحد من رجالنا ما دمنا لا نضر أحدًا.. كل ما
ستفعله هناك هو بناء أساس قوي تستند عليه، فتاويك ستنتقل من هناك،
فأنت لن تستطيع أن تمارس نشاطك هنا وخصوصًا بعد مقتل الحسيني.
الكلمة الأخيرة كانت كافية بتقليص وجه السيد سامي، فجحظت عيناه قلقًا:

- السيد الحسيني؟

بهت السيد من الصدمة، يريد وقتًا لاستيعاب ما يقال الآن، تبخر الكلام، ثم
وبملا مح تملؤها الإرادة وصوت قوي قال الأول:

- أنت من يجب أن يقود الحشد، هم يعتبرونك سيدهم ويرون فيك القوة
لجمع شمل الشيعة.. هم بحاجة لرجع قوي.

قال الثاني:

- لقد رأينا ذلك من خلال الانتفاضة.. أبنائك قاموا بأكبر انتفاضة على
الإطلاق وتقدمت بحماستها على بقية المناطق الجنوبية.

تردد عينا السيد في الحضور ثم قال:

- هذا شرف كبير لي ولكن تولي مثل هذه الأمور س..

قاطعه الأول ويبدو أنه الأعلى شخصية بينهم:

- سيد سامي... الحسيني خائن.

لم يكن سهلاً ما قالته معصومة من اعترافاتٍ كانت كالشياط ضرب أنف - جودت بيك - فما إن سمع ما سمع حتى صعد الدم إلى رأسه وكزّ أسنانه في صمت، فمعصومة باغتته بأخبار لم يتوقعها قط، انتفخت عروق رقبتة وهو يستمع لها تتحدث عن - صفية - لم يتمالك نفسه، توقف عقله عن التفكير، تحجّرت عيناه وتيسست أطرافه إلا من الأصابع.. ما إن كوّرها حتى طاح بقبضته الغاضبة على سطح المكتب ليصدر صوتاً قوياً ارتعبت على أثره مفاصل معصومة.. وبعث بقلب معصومة إلى الجحيم.

عندما جلب السيد سامي معصومة إلى الدار بغية أن تخدم لهم وتتكفل شؤون إدارة المنزل، سارع - جودت بيك - وبأمر من مدير الأمن بأن يُجنّد معصومة بغية الحصول على معلومات تؤكد تورط السيد بانتماءاتها المشبوهة وتعاونونه في إشعال الأحداث التي تمر بها البلاد.. وكان يقابلها أثناء فترة إجازتها في البصرة.. وكان يؤكد أيضاً عليها أن تحتاط من كل خطوة، لأن السيد ذكي جداً ولن تخفى عليه خافية.

اقترب منها قائلاً بغضب:

- معصومة إن كان كلامك كذباً، فسأعلق جسدك في سقف الغرفة..
أقسم بالله.

- سيدي أقسم لك إنني أخبرتك كل شيء.

- لا تعتقدي بأنني تركت البصرة وأني رحلت عنها للأبد.. كانت العيون
تخبرني بكل صغيرة وكبيرة.. وإن كان السيد فعلاً كما قلت لي مشعوذاً
وزير نساء فذلك سوف يكلفك حياتك إن ثبت عكس ذلك.

ساعتان مضتا، ولكنهما كانتا سنتين.. فلم يكن من السهولة الاستماع
بأعصاب باردة لأقوال معصومة خصوصاً أنها ذكرت اسم زوجته،
وكيفية استدراج حميدة للإدمان كانت ضربة ثانية له، ففي ملامح -
جودت بيك - هول الحقيقة والغضب يتصارعان، سمع كل شيء، وتمنى
لو لم يسمع ما سمع، فالقضية مسّت آل بيته.. كأن الأحداث خُطّطت
لكي تنهي حياته ومستقبله.. ولكن «حميدة»؟

ومن بعد؟ السيد سامي؟ ولماذا؟

ما قالته معصومة ليس بالشيء العابر، فقد جلبت له سر موت شخص
يخصه «صفية».

غادرت معصومة المخفر بسرعة، قبل عودة سيدها.. تركها - جودت بيك - ترحل.. ولكنها لو تُدرك ما تحبُّ لها الرمال من فضاعتها لكان بقاؤها في المخفر أرحم.

على رمال الهارثة الحارقة، قطعت طريقًا طويلًا لعلها تصل بدون تأخير إلى السوق.. فلهيب الشمس الحارقة يحول دون وصولها بسرعة.. ويؤخر تقدمها البطيء.. جلست تستظل تحت الشجرة قليلًا لتعاود المشي بعدها.. تأمل أن تصل في الوقت المناسب، تتمنى بأن يتأخر السيد ولا يرجع مبكرًا لكي تتقي أسئلته.. قامت ثم طوت مسافة أخرى بمشيتها.. تتخبط ساقاها بتراب الأرض، فيرتفع الغبار ويلوث عباها، تمشي كمجنونة حتى نهشها التعب والعطش مجددًا، فأحست بضرورة الراحة مرة أخرى وابتقاء حرارة الشمس التي ألهبت وجهها الأسود.

ولم تمنع أن تأخذ قسطًا من الراحة، كقيلولة أخيرة.. تحت ظل شجرة باسقة، بسطت فروعها عاليًا، تزين الخلاء بأوراقها الخضراء.

كانت مسترخية وقبل أن تتبته إلى الشيء المنتصب أمامها.. انقضت كالسهم أفعى سوداء تتوسط أوداجها المنفوخة دائرتان حمراوان كعينين غاضبتين نبتتا من نار الجحيم.

همست بفحيحها على غفلة ثم رشقت نابيها في رقبة معصومة، لتفرغ ذلك السم اللعين في لحظة، حاولت دفع الأفعى جزعة وبید تأخرت وصرخة يأس لم يسمعها أحد، حتى وقعتا على الرمل فتلوت الأفعى ثم انتصبت مجدداً لتعلن عن هجوم ثانٍ.. جحظت عينا معصومة، تكومت لا تستطيع أن تذود بيديها لدفع الخطر، فالسم بدأ ينهشها، ثم انتصبت الأفعى تُحدج في عيني معصومة وكأنها تبعث لها برسالة ذات مغزى.

وفي سرعة اخترق أحد أنيابها رقبتها، سخونة في موضع اللدغة، ثم اضطربت أنفاسها مع ضربات قلبها، زاغ بصرها، خدرت أطرافها قبل أن ترمش بعينيها.. تخيل لها بأن الأفعى انشطرت إلى اثنين.. انتابها الغثيان قبل أن تقترب الأفعى منها، والتقطت أذنا معصومة آخر فحيح ستسمعه في حياتها:

- هذا جزء من يحاول الولوج في حياة تابعينا.

ثم لثمتها الأفعى بسرعة في وجهها ثلاث مرات لتقنعها بأن الموت هو الحاضر الوحيد الآن.

- سيد سامي مغادرتك للعراق باتت أمراً ضرورياً.

عقب الثاني:

- كل شيء جاهز في إيران.. وفرنا لك كل مقومات الزعامة التي ستساعدك في تثبيتك كمرجع ديني.

قال الثالث:

- الدار والمال والأعوان، ونفوذك سيمتد من إيران إلى العراق وأيضاً ستحكم مناطق شاسعة في المستقبل.. وسنعمل على ترسيخ هذه المخططات على أرض الواقع ولا تقلق من دعمنا لك، سيد سامي العيون باتت تراقبك مؤخراً ولا سيما بعد هذه الانتفاضات التي قامت ضد الملك وجلاوزته، وسيحاولون اغتيالك لا محالة.. ونحن في أشد حاجة إلى مرجع ديني يُقتدى به بين صفوفنا.

- فجر غد سيحضر أحد من أتباعنا.. لينقلك إلى مكان آمن ومن ثم تغادر فوراً أرض المملكة إلى إيران.

كان الأمر مفاجأة لم يتوقعها السيد، مغادرته للعراق في ليلة وضحاها، وزيادة العنف الذي أدى إلى قلة الأمان، ولا شك ستؤثر كل هذه المجريات على مستقبل السيد الذي يرنو إليه.. وبلا شك إذا بقي في العراق فهو هالك.. فالرحيل كما قالوا مهم.

مدّ المعجم الأول يده وبسط شيئاً ملفوفاً على الطاولة، أزاح القماش عن سكين لامعة، مقبضها ملفوف بقطعة كتان خشن ونصلها المشحوذ على حجر، تطلّع السيد بعينين تلمعان ولن ترفضاً رؤية مشهد قتل قريب، ثم قال الرجل الثاني بابتسامة خبيثة رُسمت على شفثيه:

- الحسيني وأنت ستستقلان نفس السيارة، لقد دبرنا أمر لقائه بك صدفة وخططنا له منذ شهر، ما أن ينطلق السائق بكما حتى سيتم التخلص منه في منطقة تم التخطيط لها من قبل السائق، فهو قاتل محترف من أتباعنا المخلصين.. ثم سيعود بك إلى الهارثة، وفي الفجر ستقلكم سيارة خاصة إلى إيران.

- ولكن عليّ تمهيد الأمر لابنتي.. فخير الرحيل سيفاجئها.

- لن ترفض إذا علمت بأن بقاءكم في العراق يهدد حياتكم فهي أم وستعي ذلك - قال الأول -.

- الحسيني الآن في لقاء مع أحد المسؤولين، خطة مدبرة لاستدراجه، سيُحضره السائق إلى أمام الدار ليقلكما في نفس السيارة إلى المكان المقصود، لتشهد على ذبح الخائن.. هذا السكين.. مسموم.

سأل السيد بخبث:

- هل لي أن أطلب شيئاً؟

تبادلت النظرات في العيون متسائلة، ثم أردف الأول:

- تفضل.

- هل من الممكن أن أغرز النصل في الحسيني بيدي.

ابتسمت الوجوه في رضا ولم يعارض أحد على الفكرة.

ها هي السيارة تنطلق بهما بعيداً عن حدود البصرة، تحمل رجلين مهمين.. أحدهما رجل أصدقائه من الجن والعفاريت، يُسخر قرينه في قضاء ما يلتوي من الحاجات، شهرته بذلك تجاوزت المدينة ووصلت إلى أقصى الحدود، وتسامع بها أهل المدن والأرياف، حتى أخذوا يسعون إليه زحفاً.

والثاني: رجل دين له صولاته وجولاته مع الدولة لكي يُحافظ على الرسالة التي أنيطت به من قبل جمهوره من الشيعة لنصرتهم حتى ظهور إمام الزمان «المهدي المنتظر».. وسيستमित من أجل نشرها بين الأمم مهما كلفه الأمر.

على بُعد أميال من البصرة اختار السائق وبحنكة شخص له خبرة واسعة في مجال التخطيط، طريقاً صحراوياً مقطوعاً شريانه عن الحياة تماماً، لا يصله إلا الجان والشياطين، لجأ إلى طريق مقفر مسدود بحجة عطل في السيارة، كان الحسيني مشغولاً بالحديث ولم ينتبه لانعطاف السائق إلى

الطريق المهجور إلا بعد فوات الأوان ولكنه لم يشك بشيء، فقد كان مغتبطاً باللقاء المفاجئ الذي جمعه بالسيد سامي.

ترجلا من السيارة قبل أن يبدأ السائق بإصلاح العطل المزعوم.. فانكب بجذعه على محرك السيارة يتظاهر بالإصلاح الوهمي.. وقبل أن يتعدا بقليل.. فطن الحسيني بتذكير السائق قائلاً:

- لا تنسَ بأن لديك عملين اليوم.. إيصال سيد سامي إلى الهارثة ومن ثم تتجه بي إلى النجف الأشرف حيث يجب أن أكون.. أعانك الله على هذا العبء الثقيل يا بني.

طمأنه السائق بأن كل شيء سيكون على ما يُرام.. وباشر عمله مُخربشاً خربشات ولطشات توهم الحسيني بأنه يحاول أن يُصلح العطل.. حتى ابتعدا عنه.

كان السيد سامي يمشي بمحاذاة السيد الحسيني، بتأنٍ يستمع بخشوع إلى ما يقوله صاحبه:

- سيد سامي.. أنا وأنت نستطيع أن نكون قوّة كبرى.. لدينا من الأنصار ما يكفي لتمهيد ذلك.. وحدتنا كافية لإقامة حزب ينصرنا.. حزب ذكره الله في قرآنه ووعدهم بالنصر.. نقيم بعدها إمارة حُكم في الجنوب العراقي ونُطلق التشيع بعدها إلى الدول المجاورة.. يتشيع بعدها بلد بعد بلد.. فكل شيء...

هنا تباطأ السيد في خطواته وترك الحسيني يسبقه قليلاً بخطواتٍ ثقيلة..
وبعينين زاجرتين أغمَد النصل في ظهر الحسيني وبِيد أخرى كتم أنفاسه
بقوةٍ ليمنعه من الصراخ أو المقاومة.. تلقى الحسيني الطعنة فتقلصت
ملاحمه، حتى انثنت قامته في صدمة، بذهول تأمل دماء الساخنة، أحسَّ
بالدماء وهي تندفق حول السكين الغائر في لحمه، جثا على ركبتيه فوقف
السيد سامي أمامه يرمقه بهدوء قبل أن يركز بقدمه صدر الحسيني ويسقط
على التراب فاغراً فاه.. ممرغاً وجهه بالتراب.

جسمه يضطرب ويتخبط ويتفجر منه الدم في قوةٍ كأنفجار الماء من
الينبوع، الجسم يضطرب ويتخبط، الدم ينفجر ولسانه يضطرب ببعض
الحديث في فمه، ثم هدأ ذلك الجسد المضطرب، وسكن اللسان المتحرك،
وينحف تفجر الدم.. حتى امتلأ الجو بسكون الموت، والسيد سامي قائم
أمام الجثة كالشيطان قبل أن يعود أدراجه إلى مكان السيارة حيث السائق
كان بانتظاره.

كادت سارية أن يغشى عليها من الأخبار الأخيرة التي جاء بها والدها، الهروب وترك كل شيء في مكانه، رفضت في البداية ترك الدار فأثرت الموت فيها ولكن ما ذنب ابتتها؟ ستكون كشجرة اقتلعت جذورها، فأقنعها السيد بأن العصيان الأخير للحكومة من قبل الشعب سوف يجبر لهم ويلات الاعتقال والموت.. لأن الحكومة بدأت بشن اعتقالات عشوائية على رجال الدين وستطوله لا محالة أيدي رجال الملك.. علاوة على ذلك فإن معصومة قد وشت لـ «جودت بيك» كل شيء رآته في البيت.. وأنها كانت تتنصت على أسرار والدها.. لم تنفّ سارية بشيء سوى أنها أدلت بفكّها السفلي إلى الأرض، ربت على كتفها بحنو يحاول أن يُطمئنها بكلمات رنانة:

- لا تقلقي فلنا دارٌ كبيرة في إيران، أكبر من هذه.. مرجعيات مهمة قد وفّرت كل شيء وسنكون بأمان بدعمٍ منهم.. ثقي في والدك يا ابنتي. دفعها برفق لكي تصعد إلى الأعلى وتلم متاعها لينطلقوا ساعة الفجر ويتعدوا عن القرية إلى الأبد.

في اليوم التالي عندما حلّ الغروب وكاد الليل أن يسدل ستاره على القرية: توجّه - جودت بيك - بسيارته إلى بيت السيد سامي.. كان يقودها بسرعة عالية وقد تطاير الشرر في تلك العينين القاسيتين.. ترتعش أطرافه وكأن أسداً غرف صدره بهرائه ممزق القلب وأخرج أحشائه، إنه الوقت المناسب لاستدراج السيد إلى إحدى المناطق الخالية وإفراغ طلق ناري في منتصف جبينه، كان يتصرف كالممسوس، صرعه الأخبار التي جلبتها تلك المشؤومة معصومة، وما أن يفرغ من السيد حتى يقضي على أمر حميدة.. كل شيء بأوانه.. كان يجاهد ليسحب نفساً إلى رئتيه، وكان الوجه شاحباً وكأنه فقد لحمه وبرزت عظام وجهه.. مملوء بدموية الغضب، وصل إلى المنزل ثم ترجل بسرعة من سيارته.. تمّ على سلاحه، بينما كانت الكلاب السائبة ترقبه بنظرات مدهوشة.. كانت الكلاب جالسة في الساحة الخارجية للدار وكأنها مستأنسة لرحيل السيد، وفي كل لحظة كانت الريح الصفراء تهب فتثير التراب الجاثم على الأرض.. مد خطواته ليتجه صوب الباب.. ضربه بعنف، حتى اشرأبت الأعناق من البيوت المجاورة للطرقات العنيفة، شبابيكها مزدحمة بنساء وأطفال يتابعون المنظر ولا يجرؤون على الخروج..

هذه كانت توصية السيد لهم قبل أن يترك المكان.. كان يعلم بأن يد الدولة ستطوله يوماً.

رحل السيد.. تصحبه عناية الله وآل بيت الرسول.. هكذا كانوا يتمتمون من وراء ضلفة الشُّباك.. يتمتمون بهمسات خائفة وقلقة.. وعيونهم لا تكاد تفارق مشهد الضابط الثائر.

لم يجرؤ أحد على فتح الباب ومنع - جودت بيك - من محاولة اقتحام البيت.. وعندما رأى الضابط بأن أحداً لا يستجيب لطرق الباب.. رجع إلى الوراء وبدأ بركل الباب الخشبي القديم.. لم يفلح في كسر الباب فاستعان بمسدسه ليطلق رصاصة صوب أكرة الباب كانت كفيلة لفض قفل الباب وفتحه على مصراعيه.

عندما دخل الدار... كان السكون يُغلفها إلا من صرير الهواء الذي يمر عبر الممرات في الداخل.. كانت كالمهجورة يسيطر على الداخل إليها الرعب.. مكانٌ بات موحشاً للغاية.. مسكونة تصرصر فيها الريح عبر النوفذ السوداء.. كأنها تحرسها أرواح الموتى.. الظلام النسبي كان يضيف على الدار رهبة على رهبة تكاد تسيطر على مفاصل الضابط رغم شجاعته التي ولّت الآن.. أصدرت الأبواب الخشبية طقطقات خفيفة وكأنها تصرخ من الوحشة وتبكي صاحبها الذي غادرها.. الأرواح التي تسكن الدار بدأت تستيقظ غير مُرحبة بالزائر.. بُثت الشعيريرة في نفسه وتسخر منه تارة وتنتحب حُزناً تارة.. وكأنّ الحيطان بدأت تتكلم

وتثور.. بل كل مفاصل البيت بدأت تستنكر وجود الشخص العدو..
تمشّت الهمهمات في فراغ البيت.. فأشباحها بدأت تهمهم بكلمات مبهمّة
تصدّع لها رأس - جودت بيك -.. انتفخت عروقه وكأن أيادي خفيّة
تعاونت على نفخها.. انتفخت عروق الوجه فجأة وتلتها الرقبة والعينين
وأنذرت بانفجار مريع.. حتى انبثق الدم من أذنيه وعينه.. وكلما تأذى
الضابط، زادت حدّة الهمهمات، أنذرت المجني عليه بالموت المُحتم.. لا
رحمة في قوانينهم من يلجها إما أن يكونوا معه أو عليه.

إن كانوا معه أسعدوه وأضافوا لحياته سعادة الدنيا التي يتمناها.. وإذا
نقموا عليه حلّت عليه لعنة ما بعدها من لعنة.

تزايدت همهماتهم حتى بدأ جسده الهالك يرتج والدماء لا تتوقف عن
التدفق بغزارة حتى طاح بثقله على الأرض.. ولم يعد ذلك الشاب القوي
قويّاً ولا وسيماً.. ولم تسكت الهمهمات حتى توقف الجسد عن الارتعاش
وكأنه شاة أفرغت الدماء من جوفها.. ساد صمتٌ فجأة.. وتوقفت
الرياح عن الصرير.

سكت كل شيء.. وبدأت أصوات أقدام الساكنين بالجوار بالاقتراب
شيئاً فشيئاً.. حتى تجمهروا على جثته الهامدة على الأرض.. غارقاً في
دمائه.. واقفين صامتين، ولا تعلو وجوههم سوى دهشة عظيمة.

أيلول 1933 - العاصمة السويسرية «برن»

وصل الملك فيصل الأول إلى العاصمة السويسرية «برن» طلباً للاستشفاء.. حيث كان التعب بادياً عليه.. شاحب الوجه، منهك القوة.. نزل في فندق "Bellevue" الفخم الذي يطل على بحر «الآر»..

وبالرغم من وضعه الصحي الحرج إلا أنه طلب أن يقابل الصحفيين، حيث كان يريد توضيح حقائق عن قمع ثورة الآشوريين على يد «بكر صدقي». قلق ومنفعل، ولم تخلُ تصريحاته من شدة اللهجة، وضرب اليد بقوة على الطاولة أثناء اشتداد انفعاله وهو يدلي بالتصريحات للصحفيين.. وحينها كان الملك قد تلقى سبلاً من التهديدات من قبل الحكومة البريطانية بسبب قمع الحكومة العراقية للثورة الآشورية.

قضى الملك 3 أيام من التعب والإرهاق الذي تزايد عليه، وتردّت حالته الصحية.. وفي 7 أيلول وعندما أصيب الملك بآلام حادة في بطنه، حضر على عجل طبيه الخاص وحقنه بحقنة تحت الجلد، فأحسّ الملك بنوع من الراحة، وتدهورت صحته بعد منتصف الليل.

كان «نوري السعيد» و «رستم حيدر» و «تحسين قادري» حاضرين ويشهدون الملك وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة وقال آخر ما قال:

- أنا مرتاح لقد قمت بواجبي وخدمت الأمة بكل قواي، ليسير الشعب بعدي بقوة واتحاد.

«ثم شهق شهقته الأخيرة».

وثارت الشكوك عندما ذكر التقرير الطبي أن سبب الوفاة ناجم عن انسداد الشرايين الذي يسبب آلاماً شديدة في الصدر، بينما الملك كان يُعاني ليلتها من آلام شديدة في البطن.

في أيلول 1933: تم تتويج الملك غازي ملكاً على العراق بصفته ولياً للعهد رغم محاولات نوري السعيد إقناع رئيس الوزراء «رشيد عالي الكيلاني» باستبعاد الأمير غازي لأنه متخلف عقلياً «حسب ادعائه» ولا يصلح لتولي الملك، ودعوة الأمير «زيد» لتولي الملك.

بعد شهر من وصوله إلى إيران.. اغتبط السيد لوفاة الملك ولكن تولي الملك غازي الحكم أثار ضغيتته وأجل رجوعه الذي كان يلحم به.. في حين كانت المرجعيات تهيب له مقومات الزعامة، ولم ينهم الشاه وعداؤه لرجال الدين عن السير قدماً لتحقيق مخططهم.. فتحرّك السيد سامي لنشر مبادئه الجديدة بين الناس وتصدير ظاهرة عدم الاستقرار إلى العراق.

بينما يبعثون الناس إلى النجف.. والاستمرار بتسريب الدس السياسي إلى بغداد تحت غطاء الدين، حتى انفجر العصيان ضد الحكومة مرة أخرى أرجعت الأوضاع إلى ما قبل ثورة 1920.. واستمروا بتحدّي الحكومة حتى اصطدموا بالجيش الذي يقوده «بكر صدقي» بالشيخ «خوام» ففضى على الحركة التي يتزعمها بسهولة.

أما السيد سامي فحاصره تهديد جماعات وأنصار السيد الحسيني الذين شكّوا بمقتله وضلوع السيد في الجريمة.. ولم يكن بدوره مهتماً لذلك الهراء كما كان يسميه.. بل بلغ الغرور به أن يرفض التفاوض مع أنصار الحسيني والبدء بالنيل منهم بالبطش والغدر بهم.

كان الوقت بعد منتصف الليل عندما عاد إلى الدار من سهرته المعتادة مع بعض الشخصيات.. دخل حجراته وألقى عباءته على الكرسي فوقف قليلاً يتأمل في الظلام.. وكأنه يردد صلاة صامته.. لم ينتبه بأن شبحاً يحمل خنجرًا يجتبي خلف الستار.. قبل أن يتحرك نحو السيد حطّ يده على فمه وشدّ رأسه إلى الوراء ووضع باليد الأخرى الخنجر على قصبته الهوائية.. كان يطلق سبّةً في أذنه.. قبل أن يذوب النصل في رقبة السيد ويخرّ على الأرض وتُنحر رقبته.. كان القاتل لا يزال قابضاً يمينه بإحكام على الخنجر المصقول بالدم وبيلادة أخذ يردد:

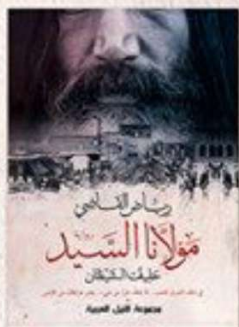
— سيد!.. يا قذر.

كان القاتل يتنفس بسرعة ويرتجف قبل أن ينسل من الشباك المفتوح ظلّ كلب أسود.. التقطت أذناه الدمدمة الخفيفة للغاية الأذني من زجرة.. كتهديد هامس.. لا يكاد يُسمع.. حتى وثب الكلب الشبح ليطبق بفكيه على عنقه مقتلعاً نصف حلق القاتل.. فاختنقت صرخات الرجل وتناثرت دماؤه على الجدران كالطر الدافئ.. تألّقت عينا الكلب في الحجرة المظلمة بفكين أحمرين مبتلين قبل أن يثب من الشباك إلى حيث أتى..

تاركاً رجلين مخضيين بالدماء على الأرض.

تجدون المؤلفات الكاملة للروائي رياض القاضي على أمازون
"RIYAD AL KADI'S" BOOKS ON AMZON

- الصرخة «سموم وادي الأفاعي» / رواية
- نسرين أبجدية العشق / ديوان شعر
- نسرين / خواطر
- نسرين / مجموعة قصصية
- الحريق والرماد / ديوان شعر
- حواء / خواطر
- عصر النساء / خواطر
- قارئة الفنجان / خواطر
- كهربانة والغزاة / خواطر
- من يوميات رجل حزين / خواطر
- قصائد نائرة / شعر
- نساء على كف الرب / شعر
- أبجدية الحب / ديوان شعر
- نسرينيات / ديوان شعر
- إسطنبول / خواطر
- اعترافات الحب / خواطر
- المجزرة / خواطر وأشعار
- الوهم / خواطر
- بغداد / ديوان شعر وخواطر
- تأملات / خواطر



يراوده إحساس بأن الأرواح تحب النار.. حينما طغى
لون الأدهم كالعقيق الأسود وبات يكتسح جدران
المغارة .. ظلال تتواثب وتراقص على الجدار من
ورائه .. تارة بأنياب كالخناجر طويلة مقوسة وساعة
تتمثل في قط أسود تتوهج عيناه في ضوء الشموع ..

غلاف
Cover by *ah2-art

Arab Nile Group

P.O. Box: 4051, 7th District
Nasr City 11727 Cairo / Egypt
Tel.: 00202/26717135 – 26717134
Fax: 00202/26717135
info@arabnilegroup.com
arab_nile_group@hotmail.com
www.arabnilegroup.com

ISBN:978-977-377-213-0

